

عشرون قصة من بطولات الصحابة

بقلم

محمد عبد المنعم أبو نور الدين



دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

<http://gate.dar-elmaarif.com>

رقم الإيداع	٢٠١٣/١٤٩٨٩
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7843-7

١/٢٠١٣/١٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)

تصميم الغلاف: غادة نبيل

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
<http://gate.dar-elmarf.com>

دار مجمع الأنوار

المكان صحراء واسعة على مد البصر.. تلال ووديان من الرمال لا ترى فيها شيئاً يأخذ بصرك.. سوى هذا البيت الوحيد المنفرد المصنوع من الطوب اللبن والحجارة المرصوة، يعلو سقفه بعض الجريد وجذوع النخل اليابسة. البيت يوجد أسفل جبل صخري أملس يدعى جبل الصفا.. وهو وحده قائم في هذه البرية القاسية لا يجاور أحياء ولا يحتفى بقرية يأنس بها.. فلا جار له سوى هذا الجبل العتيق.

وقد أضفى عليه هذا التفرد مهابة وجلالا.. وكأنه صومعة لرهبان قد اعتزلوا الخلق وضجيجهم. وهجروا متع الدنيا الفانية. وراحوا يتعبدون لله الواحد.. ويتذوقون تلك المتع الروحية التي لا يعرف مذاقها إلا أهل الإيمان.

اسم الجبل يوحى للسامع بوميض من النور الذى يهجم على القلب في طرفة عين فيملأه بالصفاء والهدوء.. جبل (الصفا). ما أن تلمح هذا البيت المتفرد حتى تشعر بشيء غامض يجذبك نحوه. شيء ما يقود روحك بزمام من الشوق والفضول لتعرف ما سر هذا البيت الفقير الذى يعلوه نور وبهاء لا تجده في أفخم القصور.. من الذى يسكنه.. على أى شيء يحتوى هذا البيت الموجود في هذا القفر الموحش. ها أنت تقترب منه شيئاً فشيئاً.. تتحسس الخطأ وتتلطف في السير حتى لا تعكر صفو هذا الهدوء الذى يخيم على المكان..

ما أن تقترب من هذا البيت إلا وتسمع همهمات تنبعث من داخله كدوى النحل.. تراتيل وتسابيح غير مفهومة.. بكاء وأنين.. أصوات حزينة تترنم وتتغنى بكلمات غريبة على الآذان في ذلك الوقت.. إنها كلمات لا تشبه شعر الشعراء ولا أسفار الأخبار.. لكنها مقدسة.. نعم مقدسة في أعلى درجات القداسة.. يشهد لذلك هذا الجلال الذي يسطو على الأرواح عند سماعها.. اقترب أكثر عساك تسمع بوضوح.

ها أنت تسمع منهم شيئاً.. ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿۲﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿۳﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿الرحمن: ۱-۴﴾

﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿۲۳﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿۲۴﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿۲۵﴾ وَلَا يُؤْتِي وَتَأْقَاهُ أَحَدًا ﴿۲۶﴾ تَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿۲۷﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿۲۸﴾ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴿۲۹﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتٍ ﴿الفجر: ۲۳-۳۰﴾

شيء عجيب.. أن يخبرك أحد وقتها أن تلك الكلمات التي تتلى في هذا المكان القفر المهجور سوف تخرج من هذه الدار البسيطة لتطير في كل الآفاق وتغير وجه العالم.. وأن هذه الدار سوف تكون مجمع الأنوار وملقى ساكني الأرض بساكني السماء.. وسوف يذكرها التاريخ وتتناقلها الروايات.. إنها كلمات القرآن، وإنها دار الأرقم.

بداخلها عدد قليل من المؤمنين المستضعفين الذين يخفون صلاتهم وتراتيلهم خوفاً من بطش العدو.. أجسادهم نحيلة مشدودة غير مترهلة.. ثيابهم من الصوف ووبر الإبل.

وجوههم شاحبة تعرف فيها هيبة الخشوع وصفرة السهر.. لكنها مضيئة مثل مصابيح الزيتون الصافية.. في عيونهم دعة غزيرة تنهاج ساخنة كلهيب الشجن.

على محياهم بسمه نضرة تخفى ما يموج بداخلهم من أحزان ومخاوف. تسمع صوتا عذبا جميلا مملوءا سكينه يبشرهم قائلا.

«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار.. ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل.. عزاء يعز الله به الإسلام وأهله.. وذلا يذل الله به الكفر»^(١).

«بشر هذه الأمة بالسنة والنصر والرفعة في الدين والتمكين»^(٢).

«إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها»^(٣).

ذلك ما قاله النبى ﷺ للناس وهو وقتها فى أشد الضيقات والاضطهاد.. حتى إنه كان يتخفى وهو معهم فى دار الأرقم..

وذلك لأنه لما رأت قريش مشهد النبى محمد ﷺ وهو يصلى ويسجد يجبينه المتوقد نورا عند الكعبة والناس تلتف حوله ينظرون إليه.. خشيت قريش أن مشهده ذلك أصبح يأسر قلوب الناس. ويكفى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند وأخرجه ابن حبان فى صحيحه. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وابنه عبد الله فى زوائده، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى المستدرک وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث ثوبان مولى رسول الله.

لدعوتهم للإيمان به مع ما كان يتلوه من قرآن يجذب الأرواح والعقول. فنهته عن ذلك وضايقته فيه. ولولا حماية عمه أبي طالب لكانت قريش منعتهم من الوجود عند الكعبة مطلقا لو تقدر على ذلك.

فكان النبي ﷺ يأخذ أصحابه ويذهب بهم إلى بعض الشعاب البعيدة ليستخفي بصلاته من المشركين. فكان الصحابة إذا أرادوا أن يلتقوا يذهبون سرا إلى بطون الأودية والشعاب.

فبينما هم كذلك في مرة يصلون ويقرأون القرآن. رآهم أحد كفار قريش فجمع عليهم جمع من الوثنيين فطردوهم وقذفوهم بالحجارة وكادوا يقتلونهم.. فلم يجدوا مكانا يقيمون فيه صلاتهم وعبادتهم.

وكان من بينهم صحابي اسمه الأرقم بن أبي الأرقم. كانت له دار أسفل جبل الصفا في مكان آمن وبعيد عن عيون المشركين.. فدعا النبي ﷺ وأصحابه ليلتقوا في داره.. فصاروا يدخلون دار الأرقم متخفين.. وهناك كانوا يجتمعون بالنبي محمد ﷺ ليسمعوا منه تعاليمه والوحي المنزل عليه. فكانت دار الأرقم مجمع الأنوار ومشرق الشمس التي أضاءت صدور الصحابة.. وفيها فتحت عيونهم بنور كلماته وتعاليمه التي صنعت من هؤلاء الأعراب البسطاء أبطالا فتحوا العالم.. وصاغت من نفوسهم الفطرية مثلا عليا.. وجعلت من حياة كل واحد منهم قصة عظيمة.

بل وسطرت في كل مواقف حياتهم ملاحم وفتوحات.. حتى أصبحوا على مر الزمن شجرة عظيمة شامخة في صحراء التيه البشرية.. شجرة لها نور ونار.. سلم وحرب.. رحمة وشدة.. يلوح نورها للسائرين من بعيد.. فتعال معي يا صاحبي الآن نذهب سويا إلى هذه الشجرة المباركة عسانا نأتى منها بقبس نور أو نجد على النار هدى.

القصة الأولى

الرؤيا المنامية التي كانت سببا في إسلام

خالد بن سعيد رضي الله عنه

كان خالد بن سعيد شابا من أعز شباب العرب حسبا ومنزلة.. فأبوه شيخ ثرى من سادات قومه.. يوفر له كل وسائل المعيشة المترفة ليكون خلفا له فى منزلته من بين إخوته.. ويجمع كل ما طالته يده من أموال ليجعل أبناءه من طبقة الأثرياء المدللين.

فكان خالد يحيا حياة رتيبة رخوة لا ينقصه فيها شىء من متع الدنيا.. غير أن ما كان يعكر صفوه هو ما يراه من أبيه فى معاملته للفقراء والعبيد وبطشه بهم وظلمه لهم من أجل مصلحته ونفوذ.. كانت نفسه تضيق لأجل ذلك وببيت ليله مسهدا متألما وكلما تذكر مشهد الدم وهو ينزف من أقدام العبيد والعرق يسيل من جباههم وهم يتنون من ضربات سياط أبيه على ظهورهم حتى يعملوا ويكدحوا بمزيد من العمل، كى يأتية بأشهى الطعام والشراب فيشعر خالد بأنه يتغذى على دماهم وعرقهم. ولكن كيف يتصرف وهذا طبع أبيه.. وإخوته كذلك قد ورثوا هذا الطبع القاسى.. ولم يكن خالد قد قابل النبي ﷺ قبل ذلك ولا دار بخلده أنه فى يوم من الأيام سوف يجتمع بأعظم رجل أظلمته قبة السما وأنه سوف يصبح من أخلص أصحابه.

حتى أتى هذا اليوم الذي لاحظته فيه عين العناية، واختارته قسمة الوعد المكتوب.. فرأى خالد فى منامه رؤيا أفزعته جدا.. فقد رأى أن هناك نارا عظيمة ملتهبة تحيط به ورأى من فظاعتها وأحوالها أمرا مهولا ورأى أنه على شفيرها وأن أباه يريد أن يدفعه فيها.

وبينما هو كذلك يكاد يسقط فى هذه النار إذا به يرى النبى ﷺ يظهر له آخذا بردائه يمنعه من الوقوع فيها، وهو يجذبه بيمينه المباركة فيدفعه بعيدا عن اللهب والنيران.

فقام خالد من نومه مفزوعا وقد تفكر فى هذه الرؤيا وتعجب منها لأنه لم تكن له مخالطة بالنبى ﷺ.. فظل مدهوشا ترعبه منظر النار التى رآها كلما تمثلت له فى مخيلته.. وتذيبه شوقا طلعة النبى المشرقة كلما تذكره وهو ينقذه من النار بكل عطف وشفقة.. ولكن ما لهذا الرجل يخاف على أكثر من أبى؟ ومن يكون حتى يخترق عالم نومى فيسبى روحى بمحبته وشوقى إليه؟ ترى هل يكون حديث نفس أم أنها رسالة من عالم الغيب البعيد؟

وهكذا طرقت محبة النبى ﷺ أبواب قلب خالد وانشغل عقله به، وأصبحت روحه أسيرة لدى النبى ﷺ، رغم أنه لم يقابله يوما ولم يسمع منه أى تعاليم.. ومرت الأيام وجرت أحداث الحياة بخالد ثم حدث بعد ذلك أنه رأى رؤيا أخرى.. فرأى كأنه غشيت مكة ظلمة شديدة حتى لا يبصر امرؤ كفه.

فبينما هو كذلك إذ خرج نور ساطع من بئر زمزم ثم علا فى السماء فأضاء البيت. ثم أصاب النور مكة كلها.. ثم تحول ذلك النور إلى أرض يثرب فأضاءها كلها حتى إنه لينظر إلى البسر فى النخل.

واستيقظ خالد وهو يشعر أن النور يملأ عينيه ومشاهد هذه الرؤيا منطبعة في فؤاده.. فقال: أحلف أن هذه الرؤيا حق.. ثم نهض من فراشه وقص رؤيته على أخيه عمرو وكان سديد الرأي.. فلما استمع إلى رؤياه قال له: يا أخى إن هذا الأمر يكون فى بنى عبد المطلب ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم زمزم.

فقال خالد: لا بد أن أسافر إلى ديار بنى عبد المطلب فأرى ما الحدث. وهنا عزم خالد على الرحلة التى ستغير كل حياته وتحوله من شاب عادى رخو لم يكن لنسمع عنه فى يوم من الأيام إلى بطل مجاهد نروى قصته لكل جيل..

أعد خالد راحلته ولملم حاجاته مسرعا يتهيا للمسير.. كان يسير ولكنه فى الحقيقة كان يُسارُ به، ويُساقُ نحو هدايته ومطلع سعادته.. ليرحل إلى شمس الإشراق التى اجتذبت روحه جذبا لا يقدر على مقاومته.

فلما وصل خالد إلى ديار بنى هاشم كان أول من قابله هو أبو بكر فلما علم أنه مقرب من النبى ﷺ قص عليه خالد كل الرؤى التى رآها وأنفاسه تلهج حرارة وصدقا.. فقال له أبو بكر: أريد بك خيرا يا خالد.. هذا رسول الله قد ظهر فاتبعه.

ومضى خالد إلى مقابلة النبى ﷺ يتخفى سرا.. يقوده الصحابة عن بعد حتى لا يفطن لهم المشركون.. فراح يمشى خلف الدليل فى حذر إلى أن خرج من أزقة القرية ودخل البادية متجها نحو جبل الصفا. كان فى كل خطوة يخطوها يرفع قدما من ماضى الجاهلية ويضع قدما فى مستقبل الإيمان.. يرتقى بكل خطوة درجة فى منازل الهداية

يشم عبير النبي ﷺ في نسيمات الهواء المحيط به كلما اقترب من موضعه.. حتى دخل عليه في دار الأرقم وجلس بين يديه يتملى من طلعتة الشريفة ويقص عليه ما رأى في منامه.. فقال له النبي ﷺ «ياخالد أنا ذلك النور. وأنا رسول الله»^(١).

فقال خالد: يا محمد ﷺ إلام تدعو؟

فقال النبي ﷺ: «أدعو الى الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله.. وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع»^(٢).

فدمعت عينا خالد ونطق الشهادتين وأسلم بين يدي النبي ﷺ.. ورجع خالد إلى دياره وقد ترك قلبه هناك في دار الأرقم معلقا بالله ورسوله.

وعلم أبو خالد بإسلامه ووصلته أخباره وما صار إليه فما أن رآه حتى قام إليه غاضبا فانتهره وضربه بمقرعة كانت في يده حتى كسرها على رأسه.. فسالت الدماء من جبهته وغطت وجهه.. ثم قال له أبوه منكرا: أتبعته محمد وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم. وعيب من مضى من آبائهم..؟ فأجابته خالد: نعم والله اتبعته على ما جاء به. فتغيظ أبوه وقال: اذهب عني حيث شئت فوالله لأمنعك القوت ولا يصلك منى درهما.. فقال له خالد: إن منعنتي فإن الله يرزقني ما أعيش به.

(١) الحافظ ابن عساكر الدمشقي في تاريخ دمشق.

(٢) ابن عبد البر في الاستيعاب.

فطرده أبوه من البيت وقال لأبنائه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به عذابا.

فانصرف خالد راجعا إلى النبي ﷺ فكان يلازمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه في نواحي مكة.

وهكذا ترك خالد حياة الترف والراحة التي كان يحيها ليعيش شاردا بين جبال مكة هائما في الوديان والبراري.. يببت ليله في دار الأرقم.

يدخل إليه كلما حل الظلام ليجتمع بالنور الأكرم فيسقى روحه التعطشة من هذا النعيم النبوي.. كانت أسعد لحظات عمره عندما كان يجلس في الدار مع الصحابة ينتظرون قدوم النبي ﷺ بشوق لا يعرفه إلا من يكابده.

حتى يدخل عليهم النبي ﷺ فيجلسون بين يديه وينظرون إلى وجهه ويستمعون إلى كلامه.. فحينما يضحكون طربا وحينما يبكون خشوعا ووجدا.. كانت التمرات وكسرات الخبز التي يتناولها مع أصحابه في حضور النبي ﷺ أحلى عنده من الدنيا وما فيها.. لم يكن يعرف هذا المذاق الحلو عندما كان يأكل أشهى وأجود الطعام الذي كان يقدمه له أبوه.. ولكنها حلاوة الإيمان التي تضيء على كل شيء مذاقا روحيا جميلا. ما أن يشرق الصبح وتلمع خيوط الفجر في السماء حتى يتفرقوا كل إلى وجهته ويتسللوا القطا كي لا تشعر بهم أعين الرقباء.

فينطلق خالد إلى الشعاب والوديان البعيدة صلى ويسجد على الثرى لديان السماوات والأرض.. لقد اختار خالد حياة النساك والزهاد ولم يعد

يفكر فى الرجوع إلى حياة أبيه.. ومن ذا الذى يرجع من الجنة بعد أن دخلها؟! ومن هو الذى يفكر فى أبيه المادى بعد أن عثر على أبيه الروحى؟!.. فأبو الجسد كل همه أن ينقذ ابنه من نيران الدنيا.. ولكن أبا الروح همه أن ينقذ ابنه من نيران الآخرة.. لأن الدنيا تفتنى والآخرة هى التى تدوم.. فكيف وأبو خالد يريد أن يقذفه فى النار الأبدية ولا يبالي بأن يطعمه من حرام ويغذيه على دماء المساكين.. ويقهره على عبادة الحجارة والآلهة المصنوعة.

حتى جاء ذلك اليوم الذى مرض فيه أبوه مرضا شديدا وعلم خالد من الركبان بخبر مرض أبيه.. فأمره النبى ﷺ بزيارة أبيه.. فذهب إليه خالد وجلس عند رأسه.

فلما فتح أبوه عينيه ورآه جالسا عنده قال له بخبت متوعدا: إن برأت وشفيت من مرضى هذا، لا يعبد إله محمد ﷺ بمكة أبدا.. فلم يتمالك خالد نفسه عندما سمع ذلك وقال: اللهم لاترفعه ولا تشفه.. فمات فى مرضه هذا.. ثم رجع خالد إلى النبى ﷺ ومعه فى هذه المرة أخوه عمرو فقد أسلم أيضا.. واختار النبى ﷺ عددا من أصحابه لكتابة الوحي وكان منهم خالد فهو أول من كتب للنبى فى المصحف.. بسم الله الرحمن الرحيم.

القصة الثانية

الصحابي الذي تغذى ثلاثين يوماً على الماء فقط...

أبو ذر رجل مشغول بالدين.. كان من قبل أن يسمع عن بعثة النبي ﷺ وهو يستنكر عبادة الأوثان ويتحسس أخبار السماء. يقول أبو ذر: صليت لله يعني على شريعة إبراهيم قبل أن ألقى النبي ﷺ بثلاث سنين.. أتوجه حيث يوجهني ربي.

فلما شاعت الأنبياء في العرب عن خروج رجل هاشمي اسمه محمد يدعى أنه نبي.. أصاب هذا النبأ قلب أبي ذر وليس أذنه.. فلم يسمعه كما يسمعه الآخرون بسخرية أو بلا مبالاة أو بسب وشتم.. وإنما وجد له في قلبه موطنًا ينتظره وكأن روحه كانت تتوقع حدوث هذا الأمر.

فالعالم حوله كان غارقاً في الظلم والماديات المتحجرة.. وكانت هناك نفوس كثيرة متعطشة للنور والرحمة.. والعطش دليل على وجود شيء اسمه الماء.. لم يكن الله العادل الرحيم ليترك البشرية هكذا يتيهون في أودية الغي والضلال.. كان لابد أن يحدث شيء يعدل كفة الميزان.

تلقف أبو ذر الخبر وكان أخوه أنيس مسافراً إلى مكة فقال له: بلغنا أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي، انطلق إلى هذا الرجل فكلمه والتني بخبره..

فلما رجع أنيس تلقاه أبو ذر بلهفة قائلاً ما عندك؟.

أنيس: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر، ورأيتهُ يأمر بمكارم الأخلاق وكأنك على دينه.

أبو ذر: فما يقول الناس فيه؟.

أنيس: يقولون.. شاعر، كاهن، ساحر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

أبو ذر: اكفنى حتى أذهب وأنظر إليه.

أنيس: نعم، ولكن كن على حذر من أهل مكة.

فخرج أبو ذر وحده، يحمل جراباً وعصاً ويضرب في الصحراء الواسعة يريد أن يصل مكة.. رحلة طويلة شاقة بين الجبال لا يريد منها دنياً ولا تجارة ولا منصباً أو جاه.. وإنما خرج يبحث عن هذا الرجل الذى سيدله على الله.

خرج يطلب المرئى والدليل الذى سيقوده إلى طريق السموات.. إنه فى

مكة، مكة.. حيث المسجد الحرام والبلد المقدس قبلة الآباء والأجداد.

مكة حيث الكعبة والطائفين والزوار والعمار.. مكة حيث زمزم والصفاء

والركن والمقام.. إنها عالم الروح وموطن التجرد.. نعم لا بد أن النبى

سيخرج من بين هذه المشاعر العظام.. وإن كانت فى مكة أصنام وأوثان

تعبد ولكنها فى الأصل بيت الجد إبراهيم، بناها لعبادة رب الأرض

والسماء.. وما هو النبى يخرج من ذرية إبراهيم ونسل عبد المطلب.. أكرم

به من حفيد يعيد مجد الأجداد.. متى تصل يا أبازر إلى مكة؟ ومتى

تقابل هذا النبى؟.

فالتطوى سريعاً هذه الصحراء.. ولكنه ما أن وصل أبو ذر إلى مكة حتى

وجد نفسه لم يصل إلى شىء بعد وأصبح فى حيرة شديدة لأنه رجل غريب

ولا يعرف أين يوجد النبي محمد ﷺ.. ولا يقدر أن يسأل عن مكانه؛ فإن من كان يسأل عن النبي في ذلك الوقت أو حتى يتلفظ باسمه يتعرض لأشد الأذى والتنكيل، ولربما للأسر والتعذيب والقتل.. فلا يقدر أحد أن ينطق باسم محمد علانية إلا إن كان سابا أو شامتا أو رجل له عصبية وعشيرة تحميه.

ففضل أبو ذر أن يظل صامتا ولا يسأل عنه أحدا وظل يتنقل بين أزقة مكة ودروبها بلا مأوى ولا طعام.. وكلما شعر بالجوع ذهب إلى بئر زمزم فاغترف من مائه وشرب منه.. إلى أن مضى عليه ثلاثون يوما وهو على هذه الحال.. غريب عابر سبيل لا يدري أين وجهته.. ولا يستطيع أن يسأل عن العنوان والشخص الذي يريده.. فالأمر ليس سهلا ولكنه طريق مَهْرُه بذل الأرواح.

حتى كان أبو ذر يقول في ذلك: فحملت جرابا وعصا. ثم أقبلت حتى أتيت مكة فجعلت لأعرفه - يعنى النبي ﷺ - وأكره أن أسأل عنه. فمكثت في الكعبة ثلاثين ليلة ويوم، وما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فسمنت منه حتى تكسرت عكن بطنى. وما وجدت على بطنى سحنة الجوع. وشاء الله أن يمر على أبى ذر ذلك الفتى الهاشمى على بن أبى طالب.. فلمح على أبا ذر وتفروسه ببصيرته النورانية.. إنه رجل غريب تبدو عليه مشقة السفر.. يحمل على كتفيه جرابا وعصا.. يظهر من ثيابه والتراب العالق بها أنه لا يبيت على فراش.. كل يوم تجده فى سكة وفى زقاق بلا رفيق ولا صاحب من أهل البلدة.. تقدم إليه على بن أبى طالب وسأله:

ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة؟.

أبو ذر: إن أعطيتني عهدا وميثاقا أن ترشدني أخبرتك.

على: فإني أفعل.

أبو ذر: بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخى ليكلمه

فرجع ولم يشفنى من الخبر؛ فأردت أن ألقاه.

على: أما أنك قد رشدت، هذا خروجي إليه فاتبعني، فادخل حيث

أدخل، فإن رأيت أحدا أخافه عليك؛ قمت إلى الحائط كأنى أصلح

نعلى؛ فامض أنت.

فمضى على بن أبى طالب يمشى أمام أبى ذر عن بعد.. وأبو ذر

يهربول خلفه حتى لا يغيب عن نظره بين الناس.. حتى دخل على ابن

أبى طالب إلى النبى ﷺ ودخل معه أبو ذر.

ويحكى أبو ذر هذا اللقاء الأول بينه وبين رسول الله ﷺ فيقول:

فمضى على ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبى ﷺ

وكان رسول الله ﷺ يصلى ومعه صاحبه - يعنى أبا بكر - فلما قضى

صلاته، أتيته فقلت: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمدا رسول الله. فرأيت الاستبشار فى وجهه.

ثم قال لى النبى ﷺ «من الرجل»؟.

فقلت: من غفار..

فقال ﷺ «متى كنت»؟.

فقلت: كنت من ثلاثين يوما وليلة ههنا.

فقال النبى ﷺ: «فمن كان يطعمك»؟.

فقلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما أجد على بطني سحنة جوع.

فقال النبي ﷺ: «مبارك.. إنها طعام طعم.. وشفاء سقم».

وعند ذلك بايع أبو ذر رسول الله ﷺ على أن لا يأخذه في الله لومة لائم وعلى أن يقول الحق ولو كان مرا..

ثم قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر اكنم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتوني، فإذا بلغك ظهورنا؛ فأقبل»^(١).

ومضى أبو ذر وقد امتلأت روحه إيمانا وقوة.. ورأى الوثنيين وهم يعبدون الأصنام ويبطشون بكل من يتبع النبي ﷺ، ويعذبون الضعفاء والمساكين من المؤمنين.. فتذكر أبو ذر أن عهده مع النبي ﷺ أن يقول الحق ولو كان مرا، وأن لا يأخذه في الله لومة لائم.. فأراد أن يعرف صدق نفسه ووفاءه بعهده مع النبي، فقال أبو ذر: والذي بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرائيهم.. ومضى أبو ذر نحو جمع من عتاة المشركين يتقدم إليهم في خطأ ثابتة لا يراهم في عينيه إلا أقل من ذرة تراب.. لا يهمه شيء ولا يشغله شيء سوى أن يرى من نفسه وفاء بعهده مع النبي ﷺ أن يقول الحق ولو كان مرا.. وبالفعل صرخ أبو ذر في وسطهم بكلمة الحق التي كادت أن تكون ضربيتها حياته.. ولكن عند تلاميذ محمد تهون الحياة أمام كلمة الحق.

يقول أبو ذر في ذلك: فلما اجتمعت قريش بالمسجد. ناديت بأعلى صوتي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.. فقالوا:

(١) البخارى كتاب مناقب الأنصار ومسلم فى صحيحه والسيرة الحلبية فى سيرة الأئمين.

قوموا إلى هذا الصائب، فضربت لأموت.. ومال على أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا على.

فأكب على العباس ثم قال لهم: ويلكم، أستم تعلمون إنه رجل من غفار، وإن طريق تجارتكم تمر عليهم؛ فخلوا عني، ثم جنئت إلى زمزم فغسلت عني الدماء.

فلما كان الغداة رجعت لمثل ذلك. فصنع بي ماصنع. وأدركني العباس وكان منه كالأمس. ثم سافر أبو زر إلى بلاده وقد عاد قويا كالصلب.. قاطعا كالماس.. زاهدا في الدنيا وما فيها.. قد عرف طريقه إلى السماء.. ووجد بغيته التي كان ينشدها.. حتى قابله أخوه أنيس، فقال له: ماصنعت يا أبانذر؟

أبو زر: أسلمت وصدقت.

أنيس: وأنا مالي رغبة عن دينك. فإني قد أسلمت وصدقت. ثم ذهبنا إلى أمهما فأسلمت أيضا. ثم ذهبوا إلى قومهم غفار ودعواهم للإسلام. فأسلم نصفهم. وقال النصف الآخر: إذا ظهر النبي كما وعدك يا أبانذر ذهبنا إليه وأسلمنا بين يديه.

ولذلك قال النبي ﷺ: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي زر»^(١).

«أبوذر أزهد أمتي وأصدقها»^(٢).

(١) مصنف ابن أبي شيبة وابن عبد الهادي في فضائل الصحابة.

(٢) أبو الفرج في سيرة الأمين.

القصة الثالثة

أبو بكر يفضى بلالا من العذاب رضى الله عنهما

كان بلال عبداً أسود أصوله من بلاد الحبشة.. وكان مملوكاً لعبد الله ابن جدعان، فكان يرعى غنماً له في المراعى والوديان.. فلما سمع ببعثة النبي ﷺ كان يتسلل إليه دون علم مولاه، فيسمع منه تعاليمه. فأحب بلال الله من كل قلبه، وأحب رسول الله ﷺ، ووجد في تعاليمه الرحمة والعدل الذى يعلى من قيمة الإنسان؛ حتى إن أبا ذر كان فى مرة يمزح مع بلال فقال له: «يا ابن السوداء.. فسمعه النبي ﷺ فغضب جداً حتى احمر وجهه وقال: «يا أبا ذر إنك أمرؤ فيك جاهلية»^(١). «طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل»^(٢). فارتضى أبونذر على الأرض ووضع خده على التراب وقال: يا بلال ضع قدميك على خدى.. فبكى بلال لما رأى هذه الرحمة وهذا الدين. الذى يمحو العصبية للأعراق والأجناس والألوان. ولم يتمالك بلال نفسه حتى ذهب يوماً إلى الأصنام التى حول الكعبة.. وقد خلا المكان من الناس. فصعد بلال فوق الأصنام وصار يبصق عليها وهو يقول: خاب وخسر من عبدكن.

(١) رواه مسلم والبخارى وأبو داود.

(٢) أخرجه ابن المبارك فى البر والملة والعراقى فى تخريج الإحياء، والإمام أحمد فى مسنده.

فشعر به رجل من الكفار. فأخبر الناس فاجتمعوا عليه وأمسكوه وقادوه إلى مولاة ابن جدعان.. واشتكوا له وقالوا له :

هل صبت يا ابن جدعان حتى يجزؤ مملوكك على هذا.

فقال لهم: و مثلي يقال له ذلك! ما الحدث؟.

فقالوا: إن أسودك هذا صنع كذا كذا.

فأعطاهم مائة من الإبل ينحرونها للأصنام، ثم تقدم أمية بن خلف واشترى بلالا من ابن جدعان ليعذبه كما يحلو له. فباعه له. وساقه أمية يجره من رأسه إلى ساحات التعذيب، وجمع حوله زبائيته ورجاله ومكنهم من تعذيب بلال.

فكان سيده أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعة ويعطشه طوال يومه وليلته.. فيطرحه على ظهره في حر الرمضاء (وهي الحصى والحجارة إذا تعرضت لوهج الشمس وحرارتها في الصحراء ولو وضع عليها قطعة من اللحم لنضجت ولو وضع عليها الماء لغلغى)، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فيحملها الرجال فتوضع على صدر بلال وبطنه.

ثم يقول له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول بلال: أحد أحد.. يمزج حلوة الإيمان بمرارة العذاب ولكي تكون كلمة أحد آخر ماينطق به إذا مات في عذابه.

فيقول أمية: زيدوه عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره.. ثم يأخذها أمية بحبل من عنقه وقد أوثق يديه ورجليه ويسلمه للصبيان يجرونه على الأرض، حتى رآه الراهب ورقة بن نوفل فقال لأمية بن

خلف: لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا - يعنى لأتخذن قبره مزارا ومسترحما لأنه من أهل الجنة - ويبكى ترحما له^(١).

إلى أن مر أبو بكر في يوم على بلال وقد وضعوا الصخرة على بطنه وقد خرج لسانه وسال لعابه وكاد أن يموت.. فقال أبو بكر لأمية بن خلف: ألا تتقى الله في هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟.

فقال أمية: أنت أفسدته، فأنقذه إذا مما ترى.

فقال أبو بكر: عندي عبد اسمه قطاس صاحب عشرة آلاف دينار ومواشى، وهو مشرك، فخذ وأعطني بلال.

فعند ذلك قال أمية لأصحابه: لألعبن بأبى بكر لعبة ما لعبها أحد

بأحد ثم تضاحك وقال له:

لا والله يا أبا بكر حتى تعطينى مع عبدك قطاس امرأته أيضا.

فقال أبو بكر: إن فعلت ستفعل؟.

قال أمية: نعم

فقال أبو بكر: أعطيتك امرأته.

فتضاحك أمية وقال: لا والله حتى تعطينى ابنته أيضا.

فقال أبو بكر: وإن فعلت ستصدق؟.

قال أمية: نعم.

قال أبو بكر: أعطيتك ابنته.

فتضاحك أمية وقال: لا والله حتى تزيدنى معهم مائتى دينار فوق ذلك.

(١) السيرة لابن هشام والسيرة الحلبية. وحلية الأولياء للأصبهاني وأمالى ابن بشران وتفسير

القرطبي والروض الأنف للسهيلى.

فقال أبوبكر: أنت رجل لاتستحي من الكذب.
فقال أمية: لا واللوات والعزى لئن أعطيتني لأفعل.
فقال: هي لك.

فأعطاه أمية بلالا ثم قال له بعد أن تمت الصفقة.
لوقلت: لا اشتريه إلا بأوقية؛ لبعته لك.

فقال أبوبكر: ولو طلبت مائة أوقية لأخذته بها.
فقال أبوسفیان لأبي بكر يعاتبه: إنما أضعت مالك ولن تعوضه أبدا.
فمضى أبو بكر وبلال يستند عليه لأنه لا يقوى على المشى وهو يقول
لأبي بكر: إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله
فدعني.. فضحك أبوبكر وأخذ يفك عنه قيوده وهو يقول له:
أنت حر لوجه الله يا أخی.

ثم ذهب بلال إلى رسول الله ﷺ، ففرح رسول الله وتهلل لما رآه
وقال عمر: «أبوبكر سيدنا وقد أعتق سيدنا».. وبشره رسول الله قائلا:
«بلال سابق الحبشة»^(١) «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: إلى علي، وعمار.
وبلال»^(٢).

وهكذا كان أبو بكر يشتري العبيد المعذبين.. فقد اشترى عامر بن
فهيرة وأم عنيس، وامرأة يقال لها لطيفة، وأم عامر، وكذلك النهديّة،
وابنتها وغيرهم كثير.. حتى إن أباه قال له: يا بني، إنى أراك تعتق رقابا
ضعافا، فلو أنك اشتريت رجالا أقوىاء جلداء، يحمونك ويقومون دونك.

(١) سير أعلام النبلاء، وحلية الأولياء، لأبي نعيم والطبقات الكبرى لابن سعد.

(٢) الترمذى فى الجامع والطبرانى فى المعجم الكبير والحاكم فى المستدرک.

فقال أبو بكر: يا أباي، إنما أريد وجه الله.. فأنزل الله في القرآن ﴿ فَأَمَّا
 مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ الليل ٥-٧
 إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿١١﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ
 وَجْهِهِ الْأَعْلَى ﴿١٢﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ الليل ١٩-٢١
 ولذلك كان النبي ﷺ يقول في حق أبي بكر «إن من أمن الناس
 على صحبة أبا بكر.. واسانى بماله.. وزوجنى ابنته.. واشترى لى بلالا»^(١)
 فيبكى أبو بكر قائلاً: وهل أنا ومالى وعيالى إلا لك يا رسول الله.

(١) رواه ابن عساکر والطبرانى.

القصة الرابعة

عمران بن حصين رضي الله عنه ابن وأبوه يختلفان ثم يلتقيان في أحضان الهداية

كان حصين رجلاً متقدماً في السن، توقره قريش وتحفظ منزلته.. وكان ابنه عمران قد أسلم واتبع النبي ﷺ، فلم تشأ قريش أن تبطش بعمران وتذيقه العذاب كما تفعل بالشباب الذين يعلنون إسلامهم لأجل مكانة والده بينهم.. فذهب سادة قريش إلى حصين وقالوا له: يا حصين، كلم لنا هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؛ فإنه يذكر آلهتنا وأصنامنا ويسبها. فوقع كلامهم منه موقع القبول والاستعداد خاصة وأن ابنه أيضاً قد آمن بالنبي ﷺ وكفر بالهة آباءه وأجداده.

فنهض حصين متوجهاً نحو النبي ﷺ وقد امتلاً غضباً بعد أن دفعه قومه وجعلوه رائداً لهم في أن يدفع عنهم أذى محمد.. وذهبوا معه جميعاً يحدثونه طوال الطريق ويوغرون صدره على النبي ﷺ بكل كذب قبيح.. حتى وصلوا قريباً من باب النبي ﷺ فجلسوا في الخارج ودخل حصين. فلما رآه النبي ﷺ رحب به وقال لأصحابه «أوسعوا للشيخ».. وكان عمران ولده جالسا بين الصحابة.. فجلس حصين وهو متحفز ثم بادر بالكلام فقال للنبي ﷺ في لهجة اعتراض:

ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها.

فقال له النبي ﷺ: «يا حصين كم تعبد من آلهة»؟.

الحصين: سبعة في الأرض وواحد في السماء.

فقال النبي ﷺ: «فإذا أصابك الضر لمن تدعو»؟.

قال حصين: الذي في السماء.

قال النبي ﷺ: «فإذا هلك المال فمن تدعو»؟.

حصين: الذي في السماء.

فقال النبي ﷺ: «فيستجيب لك وحده وتشرك معه! أرضيته في

الشرك يا حصين؟ أسلم تسلم».

فتفكر الحصين قليلا ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك

رسول الله.

وعندها فرح الجالسون واستبشر الصحابة، فقام إليه ولده عمران

وأخذ يقبل رأسه ويديه ورجليه.. فبكى النبي ﷺ.. فسأله الصحابة:

لم بكيت يا رسول الله؟.

فأجابهم النبي ﷺ: «بكيت من صنع عمران، دخل حصين وهو كافر

فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته. فلما أسلم وفأ حقه فدخلني من

ذلك الرقة».

فلما أراد حصين الخروج قال النبي ﷺ لأصحابه: «شيعوه إلى

منزله»^(١). فلما خرج حصين من عتبة الباب لم يلتفت ناحية رجال

قريش الذين كانوا ما زالوا جالسين، فكأنه لا يعرفهم.

(١) السيرة لابن هشام وأسد الغابة والسيرة الحلبية.

القصة الخامسة

الطفيل رضي الله عنه ومعجزة قنديل النور

كان من بين القادمين إلى مكة للحج رجل اسمه الطفيل بن عمرو الدوسي.. وكان شريفاً في قومه. شاعراً نبيلاً.. فلما رآه المشركون في بلدهم تخوفوا أن يقابل النبي ﷺ فيستمع لحديثه العذب فيميل قلبه له ويؤمن به؛ خاصة وأن الطفيل من أهل الشعر والبلاغة فهو رجل رقيق المشاعر يقدر الكلمة ويزن الرجال بما يخرج من أفواههم.. فكيف إذا قابل شخص النبي ﷺ بما له من سطوة على القلوب وجمال وجلال يأخذ بالأرواح وسمع منه آيات القرآن التي تخضع لها الآذان والقلوب. فلم يكن أمامهم سوى أن يقوموا بحملة تحصين للطفيل ووضع الحواجز بينه وبين النبي ﷺ عن طريق تشويه النبي في ذهنه والتخويف منه؛ حتى إذا مر الطفيل بالنبي ﷺ في طريق نفر منه ولم يسمع له، وإذا سمع له لم يتأثر به.

فقالوا له: يا أبا الطفيل، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا.. قد أعزل أمره بنا، فرق جماعتنا، وشئت أمرنا. قوله كالسحر يفرق بين المرء وأخيه وبين الرجل وزوجته.. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل بنا؛ فلا تكلمه ولا تسمع منه.

وسمع منهم الطفيل هذه الوصية وتأثر بها إلى درجة جعلته يحشو أذنيه قطناً مخافة أن يستمع إلى النبي ﷺ أو أن يسمع أحد أتباعه يتلو شيئاً من القرآن.

ولكن لأن النفس من طبعها أن تطلب الممنوع وتتشوق لمعرفة المجهول فقد جاءت هذه الحملة الوثنية الكاذبة بنتيجة عكسية مع الحصين.. حتى كانت بداية إسلامه، ولندعه هو يحكى لنا قصته فيقول:

فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه.. حتى حشوت في أذني كرسفا - يعنى قطنا - خوفا من أن يبلغنى شيء من قوله، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة.. فقممت قريبا منه، فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله.. فسمعت كلاما حسنا.. فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إنى لرجل لبيب شاعر، وما يخفى على الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته. فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته.. حتى إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: محمد، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سدت أذنى بكرسف لثلا أسمع قولك.. ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعتة قولا حسنا.. فاعرض على أمرك.

فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام وتلا على القرآن.. فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق. وقلت: يا نبي الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام؛ فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال النبي ﷺ: «اللهم اجعل له آية».

فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنية - وهى مكان مرتفع - تطلعنى على الحاضرين - وكانت ليلة مظلمة - وقع نور بين عينى مثل الصباح..

فقلت: اللهم فى غير وجهى فأنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة - يعنى برصا وقع فى وجهى - فتحول النور فكان فى رأس سوطى، فجعل الحاضرون يتراوون وينظرون ذلك النور كالتنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

وتجمع الناس يشاهدون الطفيل وهو نازل من فوق هذه الهضبة المرتفعة وبيده نور يتلألأ وكأنه التنديل فينظرون فلا يجدون مصدرا لهذا النور؛ فكانت آية عجيبة ورمزا يوحى بأن الطفيل قد رجع إليهم بغير ما ذهب.. وأنه قد عاد مُحملاً بنور من عالم علوى غيبى.. فالتفتوا جميعا حوله وجلسوا يسمعون لكلامه وما دار بينه وبين النبى ﷺ فتشوقوا جميعا لمقابلة مصدر هذا النور وانشرحت صدورهم للهداية فأسلم أهل الطفيل كلهم.. أبوه وزوجته وأبناؤهم وعشيرته، وسماه قومه بذى النور. ثم ذهب الطفيل يدعو بقية قبيلته دوس فأمن بعضهم لما رأى آية النور ولكن الباقين منهم رفضوا الإيمان لأنهم أصرروا أن لا يتركوا الزنا الذى يحرمه الإسلام.. فلما أبطأوا فى الإيمان رجع الطفيل إلى النبى ﷺ فى مكة وهو حزين مهموم.. وقال: يانى الله، إنه قد غلبنى على قومى دوس الزنا.. فادع الله عليهم ليهلكهم.. ولكن إذا بالنبى ﷺ يرفع يديه ويدعو قائلا «اللهم اهد دوسا وأئت بهم».. «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»^(١)

فرجع الطفيل إلى قومه فوجد ثمانين بيتا كلهم قد أسلموا ببركة دعاء النبى ﷺ.

(١) البخارى فى صحيحه وابن هشام فى السيرة الإصابية فى تمييز الصحابة ابن حجر

القصة السادسة

هجرة أبي أحمد الضريير رضي الله عنه

ورحلة الكفاح المقدس...

كان شاعرا من فرسان الكلمة.. تقدم به العمر فقد بصره لكنه لم يفقد بصيرته.. وقد أحب النبي ﷺ حبا سوف تراه في كل أفعاله وكلماته.. فبالرغم من أن الله قد أعطاه رخصة لأنه من ذوى الأعذار فإنه لما علم بهجرة الصحابة إلى الله ورسوله. تفكر في حاله أن له دابة يركبها وعنده زاد من طعام وشراب يكفيه للوصول إلى المدينة.. فلا ينقصه شيء للهجرة ولا حجة له للجلوس بين المستضعفين.. رغم أنه إذا تأملناه وجدناه من أشد المستضعفين.

فهو رجل أعمى مسن فقير.. ولكنها قوة الإيمان التي إن تمكنت من قلب إنسان ضعيف جعلت منه بطلا يُضرب به الأمثال.

فلما أراد أبو أحمد الهجرة خرج بزوجته وكل أهله وخرج معه أخوه عبدالله بن جحش وأبناؤهم معهم صغار. حتى تركوا ثلاثين بيتا من أحسن بيوت مكة استولى عليها أبو جهل.. ومضوا في مسيرهم ليس لهم دابة يركبونها ومشي أبو أحمد يتعثر في صخور البرية ومفاوز الصحراء وقد هجر الوطن وترك الديار لا يحمله على ذلك إلا الحب لرسول الله.

فتقدم أخوه عبد الله يقوده ويحمله على كتفيه أحيانا إذا كان الطريق وعرا.. حتى إذا كانوا خارج مكة قابلهم جمع من المشركين في الخيل والسلاح فعرفوهم وأرادوا القبض عليهم.. فقال أبو أحمد: إن لنا بيوتا في مكة ولنا ثلاثون شاة عند فلان جار لنا، وهذا ما معنا من مال فخذوهم واتركونا. فأخذ المشركون مالهم وتركوهم.. وخلصت ديارهم بمكة وصارت خرابا، فمر بها عتبة بن ربيعة. وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب، فنظر إليها وهي خاوية تخفق أبوابها ليس فيها ساكن وقد خيم عليها الظلام فعدت أطلالا تحمل الذكريات، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء حزنا، ثم أنشد قائلا:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدرکہا النکباء والحبوب
أصبحت ديار بنى جحش خلاء من أهلها.

فقال أبو جهل وما تبكى عليها ذلك عمل ابن أخيك هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا. وقطع بيننا. ولكن أبو أحمد في ذلك الوقت كان يسعى سعيدا لا يبالي بما فقد من الدنيا الزائلة فقد كان جبلا ثابتا في الإيمان.. يستظل به من حوله.. مضت زوجته المؤمنة إلى جواره وهي التي رافقته طوال عمره وخدمته في مرضه وكانت له عوضا عن عينه التي فقدها.. وهي من أنجبت له أحمد الذي اختاروا له هذا الاسم موافقة لاسم النبي ﷺ، وهي من وافقته على الهجرة وترك الديار.. ولولا الإيمان واليقين ما كان لامرأة أن توافق رجلها على ذلك أبدا.. وإن كان إيمانها لم يمنعها من غلبة طبعها البشرى الرقيق كامرأة تحزن وتبكي حزنا على الماضي وخوفا من المستقبل المجهول.

فقد تركت موطن صباحا ونشأتها والعش الذي درجت فيه وقضت فيه عمرها مع زوجها وأبنائها.. وهام مقدمون على بلد ليس لهم فيها بيت ولا زرع ولا ضرع.. ولا تعرف عن هذه البلد سوى ما تسمعه من الناس أنها أرض وباء ومرض.. فقالت زوجته:

إننا نخاف على أولادنا من وباء المدينة لأن الحمى كانت منتشرة بأرض المدينة فلو ذهبنا إلى أى بلد أخرى نعبد الله فيها.

فعند ذلك أنشد أبو أحمد كلمات يسرى بها عنها ما تجده.. ويصوغ فيها للمؤمنين من بعده جوهرًا خالصًا من معاني اليقين.. فراح يقول.

لَمَّا رَأَيْتَنِي أُمَّ أَحْمَدَ غَادِيًّا	بَذِمَّةَ مَنْ أَحْشَى بَعِيْبَ وَأَرْهَبُ
تَقُولُ فَأَمَّا كُنْتُ لَأَبْدُ فَأَعْلًا	فَيَمِّمُ بِنَا الْبُلْدَانَ وَلَتَنَّا يَثْرُبُ
فَقُلْتُ لَهَا بَلْ يَثْرُبُ الْيَوْمَ وَجْهَنَا	وَمَا يَثْرِبُ الرَّحْمَنُ فَالْعَبْدُ يَرْكَبُ
إِلَى اللَّهِ وَجْهِي وَالرَّسُولِ وَمَنْ يُقِمُّ	إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يُخَيَّبُ ^(١)

(١) السيرة لابن هشام والاصابة في تمييز الصحابة والاستيعاب

القصة السابعة

أم شريك رضي الله عنها ...

معجزة الماء وإناء السمن المبارك

كانت هناك امرأة سالحة من دوس تدعى أم شريك كثرت عنها الروايات وتعددت فيها الأقاويل.. وهبت حياتها لله ورسوله وجهرت بإسلامها في زمن كان الرجال فيه يخفون حقيقة دينهم ويخفون الصوت عند النطق باسم محمد ﷺ كان في قلبها سرا يحدثها بأن الله معها سيتولاها بالعناية والحفظ؛ فراحت تدعو للإيمان في كل مكان وفي كل بيت ولا تبالى بما تتعرض له من تعذيب وآلام.. قيل عنها إنها كانت امرأة مسكينة المنظر ليس لها نصيب من جمال الشكل.. ضعيفة جدا.. وأن زوجها مات عنها وقيل إنها لم تتزوج لأنه لم يكن أحد يرضى أن يتزوجها ويشاركها حياتها.. لذلك كانت تدعى «أم شريك» يسخرون منها بذلك.. وقد تقدمت بها السن.

هذه المرأة أرادت أن تهاجر إلى النبي ﷺ في المدينة، ولم يكن لها أحد يصحبها في هجرتها لأنها بلا زوج ومنقطعة الأهل.. فخرجت تترقب ركبا أو أحدا ليسافر معها.. فرآها رجل مشرك فقال لها: مالك يا أم شريك؟

فقالت: أطلب أحدا يصحبني إلى رسول الله.

المشرك: فتعالى فأنا أصحابك فإنى مسافر نحو يثرب.
 أم شريك: إذا فانتظرنى حتى أملاً قريتى ماء.
 المشرك: معى ماء كثير، لاتريدين ماء.
 فانطلقت معه فساروا يومهم حتى أمسوا.. فنزل المشرك ووضع سفرتة
 فتعشى.. وقال لها:

يا أم شريك، تعالى إلى العشاء.
 فقالت: اسقنى من الماء فإنى عطشى ولا أستطيع أن آكل حتى أشرب.
 المشرك: لا أسقيك حتى تكفرى بالله.
 أم شريك: لاجزاك الله خيرا؛ غربتنى ومنعتنى أحمل ماء معى.
 المشرك: لا أسقيك قطرة حتى تكفرى.

أم شريك: لا والله لا أكفر أبدا بالله بعد إذ هدانى الله للإسلام.
 فأقبلت إلى بعيرها فركبته ووضعت رأسها على ركبته فى هودجها
 فنامت فما أيقظها إلا برد دلو من ماء قد وقع على جنبها.. فشربت منه
 حتى ارتوت، ثم ملأت منه قريتها، ثم ارتفع هذا الدلو. حتى توارى
 وغاب عنها فلما أصبحت ناداها المشرك قائلاً:

يا أم شريك لا أسقيك حتى تكفرى.

فقالت: والله لقد سقانى الله.

فقال: ومن أين أتاك الماء؟!.

فقالت: من السماء.

فنظر المشرك ووجد قريتها مملوءة ماء فتعجب منها.. وحكى للناس
 هذه الآية فى المدينة، ودخلت أم شريك للنبي فقضت عليه ماحدث.

فخطبها النبي إلى نفسه. وطلبها زوجة له فقالت له: يارسول الله لست أرضى بنفسى لك. فأنا دون ذلك.. ولكن بضعى لك فزوجنى من شئت.. فزوجها النبي رجلا من الصحابة اسمه زيد بن نوفل وأمر لها بثلاثين صاعا من الشعير.

وكثر الخير والرزق فى بيت أم شريك وزوجها زيد.. وأنجبت أبناء.. وصارت لها جارية تخدمها.. فأرسلت جاريتها فى يوم إلى النبي تهديه عكة سمن وهى إناء من الفخار يوضع فيه السمن.

فقبلها النبي ﷺ وأعطاهما لأهله فأفرغوا ما بها من سمن.. ثم أخذ النبي هذه العكة الفخارية وهى فارغه فأعطاهما للجارية.. ثم قال لها ﷺ: «العقوها ولا تأكلوها». فأخذتها الجارية ورجعت بها إلى بيت أم شريك فعلقته فى مكان بالبيت فدخلت أم شريك فنظرت إلى العكة فوجدتها مملوءة سمن كما هى. فقالت أم شريك للجارية: أليس قد أمرت أن تتلقى بهذه العكة إلى رسول الله؟.

فقالت الجارية: قد والله انطلقت بها كما أمرت وأعطيتها للنبي فقبلها وأخذوها وافرغوها ثم أعطانى إياها. وقال لى «العقوها ولا تأكلوها». فأقبلت بها وما يقطر منها شيء، فعلقته فى مكانها هذا، وهى مملوءة كما كانت تقطر سمنًا من جوانبها.

فكانوا يأخذون من سمنها الذى تقاطر كل يوم ويلعقون منها زمانا طويلا لمدة عشر سنين.. حتى دخل إليهم ضيوف فى يوم فاغترفوا ما بها فأكلوه ففتيت عند ذلك^(١).

(١) فضائل الصحابة والتاريخ الكبير وابن كثير فى التاريخ وأبو نعيم فى الحلية وابن منده فى مسنده ودلائل النبوة.

القصة الثامنة

واصهيباه ولا صهيب لي!

كان الوثنيون في مكة يتحرقون غيظا على إفلات المسلمين من أيديهم وهجرتهم إلى المدينة.. فكانوا يثأرون من أقاربهم ومن المستضعفين الذين استطاعوا أن يمنعوهم من الهجرة، فراحوا يزيدون عليهم صنوف العذاب. كانت صرخاتهم تصل إلى قلب النبي محمد ﷺ فيتألم رحمة لهم.. فتتحرك روحه من مقام صفته بالمؤمنين رؤوف رحيم وتفزع إلى خالقها بالدعاء.

فكان ﷺ يدعو الله كل ليلة إذا صلى العشاء فيقنت في الركعة الأخيرة بالدعاء قائلا.. «اللهم أنج الوليد بن الوليد.. اللهم أنج سلعة بن هشام.. اللهم أنج عياش بن ابي ربيعة.. اللهم أنج هشام بن العاص.. اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين»^(١).

وكان يتذكر صهيبا الرومي كثيرا.. ويذكر أن المشكرين حبسوه عنه وهو في طريقه إلى الهجرة من مكة إلى المدينة وعذبه عذابا شديدا فيحزن لذلك.. وينادى عليه قائلا.. «واصهيباه، ولا صهيب لي»^(٢). لأنه كان يفتقده.. فقد كان لكل صحابي عند النبي ﷺ بيتا خاصا في قلبه..

(١) البخارى والميرة لابن هشام.

(٢) الطبرانى فى الكبير وتاريخ دمشق لابن عساكر والسيرة الحلبية والحلية للأصبهاني.

لا يزاحم فيه كل صحابي أخاه برغم كثرتهم وعددهم. وذلك لسعة قلب النبي الممتدة بنور الشرح الإلهي ﴿الْمَنْشَرَحَّ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. الشرح - ١
وكذلك كان صهيب في مكة يئن شوقا للقاء النبي ﷺ.. ويتألم لذلك أكثر من آلام التعذيب التي تقع على جسده.. ولم يستسلم صهيب ولم يهدأ له بال حتى صنع حيلة أخرى وهرب من محبسه الذي يحبسه فيه الوثنيون.. وفر مهاجرا إلى النبي ﷺ حتى تجاوز حدود مكة وسلك في طريق المدينة.

فأصاب الوثنيون في مكة غضبا شديدا من هروبه وامتطوا الجياد في كل مكان مسرعين في البحث عنه.. وراحوا يقتفون أثره حتى لحقوا به في طريقه للمدينة.

فلما سمع صهيب صهيل خيولهم، وصياحهم، ورأى سيوفهم تبرق مقتربة منه.. حاول الفرار منهم لكنه كان يجري على قدميه بلا جواد.. فأدركوه وأحاطوه بسيوفهم ورماحهم.. وقالوا له.

جئتنا فقيرا حقيرا صلوكا لا مال لك، فكثير مالك عندنا وتريد أن تخرج بمالك ونفسك، لا يكون ذلك ابدا.

فانتهزها صهيب وقال لهم: لقد علمتم أنني من أربابكم رجلا، وإيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ثم أضربكم بسيوفى ما بقى في يدي منه شيء، فافعلوا ما شئتم. ولكن أرايتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى.

فقالوا: وأين مالك؟

فقال: احفروا تحت أسكفة باب بيتي تجدون أواقى من الذهب.

فذهبوا إلى بيته ليقتسموا الذهب وتركوه، فمضى في طريقه حتى وصل إلى المدينة.. وكان النبي ﷺ في ذلك الوقت جالسا مع أصحابه فرأى صهيبا مقبلا من بعيد.. فاستقبله النبي ﷺ فرحا وهو يهتف قائلا: «ريح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى»^(١).

فتعجب صهيب وقال: يا رسول الله إنه ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك بذلك إلا جبريل.. وصار الناس ينادون صهيب بأبي يحيى حتى اشتهر بهذا الاسم.. وسأله عمر لما رآه: ما هذا الاسم الجديد يا صهيب وليس لك ولد؟ فقال صهيب سماني به حبيبي ﷺ.

(١) الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک وحلية الأولياء.

القصة التاسعة

أم سلمة رضي الله عنها من طريق البلاء إلى بيت النبوة

كانت قريش تموج غضبا على من يفلت من بين يديها من المسلمين ويهاجر إلى المدينة؛ فوضعوا الأرصاد والعيون على حدود مكة وعلى رؤوس الجبال؛ ليخبروهم بمن يحاول الخروج من مكة والهروب من قبضة عذابهم، وكان من الذين أدركهم المشركون أثناء هجرتهم امرأة مؤمنة فقيرة تدعى أم سلمة وهي زوجة الصحابي أبي سلمة.

فإنها هي وزوجها كانا من المؤمنين الذين هاجروا للحبشة ثم عادوا إلى مكة فعذبوا أشد العذاب.. ولما عزموا على الرحيل إلى المدينة كان عندهم بغير واحد، فحمل أبو سلمة زوجته على البعير ووضع بين يديها ابنهم سلمة، وزودهم بالطعام والماء.

وقاد هو البعير، وأثناء خروجهم من مكة هجم عليهم جمع من المشركين من قوم زوجته فقالوا له: يا أبا سلمة لقد غلبتنا على نفسك، فصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ثم نزعوا منه زمام البعير، وأنزلوا زوجته أم سلمة بالقوة، وأخذوها وابنها. وبينما هم كذلك أقبل جمع آخر من المشركين من قبيلة أبي سلمة فلما رأوا الغلام وأمه بينهم.. قالوا: لقد نزعتموها من صاحبنا فلا تنزعوا

ابننا معها فسنزعه ولدنا منها فالولد لنا.. ثم تجاذبوا الغلام بينهم وكل فريق يجذب الغلام من ذراع حتى خلعوا يده. وأخذه قوم أبيه ومضوا به. وصارت المرأة تصرخ قائلة: ابني.. زوجي، ثم مضى بها قومها وهي لا تكف عن الصراخ والعيويل.. وهاجر أبو سلمة وحده.

فكانت أم سلمة تخرج كل يوم في سكك مكة تبكي حزنا لفراق ابنها وزوجها وكاد عقلها أن يجن حزنا عليه.. وظلت على حالتها هذه فترة طويلة حتى مر بها في يوم رجل من بنى عمها فرأى حالها؛ فرحمها. وقال لقومها: إلا ترحمون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها.. فقالوا لها: الحقى بزواجك.

فلما بلغ ذلك قوم زوجها ردوا عليها ولدها.. فركبت بعيرا وجعلت ولدها في حجرها، ورحلت تريد المدينة وليس معها أحد من خلق الله.. فكانت تمشي وسط الصحراء والجبال الشاهقة هي وابنها يحيط بهم الموت من كل جانب.. حتى إذا وصلت لمكان اسمه التنعيم لقيها عثمان بن طلحة فتعجب أن يرى امرأة ووليدها في هذا المكان وليس معهم من يحميهم. فقال لها: إلى أين يا أمة الله؟

فقالت: إلى زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

فقالت: لا، ما معي إلا الله وابني هذا.

فقال: والله لا أتركك في هذه البرية.

فأخذ بزمام بعيرها يقوده لها وسار معها.. وكان من شهامته أنه إذا وصلوا إلى مكان للمبيت أتاخ لها البعير ثم يتأخر هو حتى تنزل،

ثم يأخذ الجمل فيقيده فى شجرة، ويأتى إلى شجرة فيضج تحتها.. فإذا أصبحوا للرحيل قام فأخذ البعير فقبه إليها ثم يستأخر بعيدا ويقول لها: اركبى.. فإذا ركبت تقدم فأخذ بزمام البعير يقوده.

وظل هكذا حتى إذا أشرفوا على المدينة وصاروا على مقربة منها قال لها: هذا زوجك هنا فادخلى إليه على بركة الله.. ولحقت أم سلمة بزوجها فى المدينة يجمعون أبناءهم تحت جناحهم، ويعيشون حياة الإيمان والعبادة.

ومر زمن طويل من دخول النبى ﷺ وصاحبته إلى المدينة وخوضهم معركة بدر وأحد، وعزمت قبيلة تدعى بنى أسد على أن تهاجم المدينة وراحت تعد لذلك جيشا من رجالها.. فبلغ النبى ﷺ هذا الخبر، فكان لا بد أن يقوم بحملات تأديبية لردع هذه القبائل والعصابات التى تعيش على قطع الطريق والسلب والنهب، وقد رأت أن الاسلام خطر يقضى على قرصنتها، فاختارت محاربة المسلمين بكل وسيلة. وأعملوا الغدر والاغتيال للصحابة فى كل مكان، حتى تجاسروا على الإعداد لاقتحام المدينة.. وتسبق الصحابة للخروج لرد هذه الاعتداءات الظالمة؛ فجهز النبى ﷺ منهم كتيبة فيها من جند الله مائة وخمسون رجلا واختار أبا سلمة ليكون أميرا لهم وقال له وهو يودعه: «أخْرُجْ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ فَقَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهَا».. وَعَقَدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ الرَايَةَ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَأَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالثَّبَاتِ وَقَالَ لَهُ: «سِرْ حَتَّى تَرِدَ أَرْضَ بَنِي أَسَدٍ، فَأَعِزَّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ تَلْقَى عَلَيْكَ جَمُوعَهُمْ»^(١).

(١) مغازى الواقدى.

وكان أبو سلمة ممن شارك في أحد وأصيب بجرح غائر في جسده، وكان يتمنى على الله الشهادة، وأحس أبو سلمة بأنه على أعتاب الآخرة وأن الله سوف يختاره من الشهداء؛ فذهب الى بيته يودع زوجته وأولاده.. وقال لزوجته وهو يوصيها: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يصيب أحد من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتها، ثم يقول اللهم أجرني في مصيبتى. وأخلف لي خيراً منها». إلا فعل الله ذلك به^(١).

ثم رفع أبو سلمة يديه يدعو الله قائلاً: اللهم اخلفني في أهلي بخير.. وفارق أهله وهم يودعونهم بالدعاء والدموع.

وخرج أبو سلمة بالكتيبة يسرع في المسير قبل أن يداهمهم العدو، حتى أصبح على مقربة من أرض بني أسد فقسم كتيبته إلى ثلاث فرق وأرسل عليهم من كل ناحية فرقة.. فألقى الله الرعب في قلوب الوثنيين فتفرقوا وفرروا هاربين في الجبال.. فأمر أبو سلمة جند الله أن يكفوا عنهم ولا يلاحقوهم. ورجعوا جميعا سالمين غانمين، لكن الجرح الذي كان في جسد أبي سلمة قد انتفض عليه ثانية وفاضت روحه بعد ثلاث ليال من رجوعه. فقالوا: رحم الله أبا سلمة كان من شهداء أحد، يعيش بيننا حتى رد بني أسد.. ولما توفى أبو سلمة حزنت امرأته حزنا شديدا، وقد هدت وفاته قواها وأحيت ذكرى البلياء التي تحملتها طيلة أيامها.. وتذكرت هجرتها في سبيل الله مع زوجها إلى الحبشة في الهجرة الأولى. ثم هجرتها معه إلى المدينة في الهجرة الثانية.. وتذكرت عندما نزع المشركون منها ولدها حتى خلعوا يده، وفرقوا بينها وبين ولدها

(١) الترمذى وأبو داود وابن ماجه وأحمد.

وزوجها.. فقد قضت حياتها ترحل وتتنقل من بلد إلى بلد لا يستقر بها وطن ولا تعرف لها بيت. كل ذلك قد لاقته لأنها اختارت الإيمان بالله ورسوله.. وها هو زوجها يفارق الحياة ويتركها تعول أيتاما غرباء فقراء. ومضت الأيام والشهور على أم سلمة وأبنائها وهم يعتصمون بالصبر والرضا في وجه هذه الأحزان.. ولم يكن سهلا أن يوجد رجل يرتضى بأن يتزوج هذه الأرملة المسكينة المتقدمة في العمر وأن يضم لحياته أولادها بأعبائهم وحملهم.

فأمر الله نبيه ﷺ أن يتزوج هذه الأرملة وأن يضم هؤلاء الأيتام إلى بيته وكنفه؛ فأرسل لها النبي ﷺ يخطبها؛ فأصاب الفرح أولادها؛ حيث كان النبي ﷺ أحب إليهم من الدنيا وما فيها، لما كانوا يرون من عطفه ورأفته.. وعرف الفرح طريق قلب أم سلمة وشعرت بأن الله يعزيها ويعطيها منزلة لم تكن تخطر لها بالبال؛ حيث تصبح أما للمؤمنين وزوجا لخير البشر بعد كل هذا البلاء الذي لاقته في حياتها.

ولكن هذا الفرح لم يجعلها تسارع في الموافقة على طلب النبي لزواجها.. فسرعان ما تراجع الفرح من فؤادها وحل مكانه القلق والمخاوف؛ فقد رأت في نفسها أنها حمل ثقيل على النبي ﷺ. وأنها أرملة مسكينة فقيرة ليست كفتا للنبي ﷺ في شيء.. وليس لديها ما تمتاز به فتقدمه للنبي ﷺ. فهناك من النساء من ذوى الحسب والثراء من هن أجمل وأغنى وأصغر منها لو أراد النبي ﷺ ذلك، كما أن أولادها سوف يكونون رهقا على النبي ﷺ وزيادة على ما يتحملة من أعباء.

فربما يكون قد دفعه طبعه الشريف المملوء بالرحمة أن يطلبها لنفسه، ليس رغبة فيها، ولكن رغبة لأن يدخل السعادة عليها وعلى بنيتها،

دون أن يلتفت إلى ما يجره ذلك عليه من أعباء وهموم تثقله.. فخشيت أم سلمة أن يكون زواجها من النبي ﷺ إيذاء له فيغضب الله منها لذلك. هكذا تمادت أم سلمة في فكرها إلى أبعد مدى تفكر به امرأة تحب الله ورسوله ويملاها الحياء وعدم رؤية الذات.. فتكلمت أم سلمة للنبي ﷺ بكلمات عميقة في معناها ودلالاتها تنم عما يدور بداخلها من أفكار ومخاوف صادقة. فقالت:

يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكني امرأة شديدة الغيرة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال.

فخاطبها النبي ﷺ قائلاً: «أَمَا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ مِنْكَ، وَأَمَا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ.. وَأَمَا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي»^(١).

فلم تكذب أم سلمة تسمع هذه الكلمات من النبي ﷺ حتى انقشعت عنها سحابة المخاوف ووجدت السعادة تعمّر كيانها.. فقالت لابنها الصغير عمر في دعاية: قم يا عمر فزوجني إلى رسول الله.

وانتقلت أم سلمة وأبنائها عمر وسلمة وزينب إلى بيت النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يحسن إلى أبنائها ويهتم بهم كأنهم أبنائه، فبسط لهم من عطفه وعلمه حتى صارت زينب من أفقه نساء أهل زمانها، وبلغ من محبته ﷺ لسلمة أن زوجه لما كبر من بنت عمه أسد الله حمزة ابن عبد المطلب.. وأما عمر فكان النبي ﷺ يحنو عليه ويحبه حبا كبيرا

(١) أحد في مسنده وابن كثير السيرة النبوية.

حتى كان يضعه في حجره ويطعمه الطعام ويعلمه قائلًا.. «يا بني، أدم، وسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(١).. وقد عاش عمر حتى صار شيخا لبني مخزوم وروى الكثير من كلمات النبي وتعاليمه المباركة. وكانت أم سلمة تقول: لما تُوفِّي أبو سلمة استرجعتُ، وقلتُ اللهم أجرنى في مصيبتى، واخلف لى خيراً منها. ثم رجعتُ إلى نفسى فتفكرت وقلتُ: ومن أين لى خيراً من أبى سلمة؟ حتى أبدلنى الله خيراً من أبى سلمة، رسول الله ﷺ.

(١) الترمذى وأحمد فى مسنده وابن أبى شيبه.

القصة العاشرة

ماذا فعل أنس رضي الله عنه كي يرى النبي ويخدمه؟
وكيف نالته بركته؟

كان عمر أنس بن مالك عشر سنين عندما دخل النبي المدينة ، وقد تعلق قلب أنس بالنبي ﷺ جدا منذ سمع عنه .. وكان ما يقع في قلبه عندما يسمع أحدا يقول كلمة «رسول الله» أن الرسول ليس بشرا وإنما شيئا آخر من خلق الله غير البشر.. هذا ما كان يستقر في خياله كطفل قبل أن يلقي النبي ﷺ .. فلما رأى أنس النبي لأول مرة أحبه حبا شديدا.. وقد حفرت تفاصيل هذه المقابلة الأولى في قلبه الصغير.. فكان يحكى هذا المشهد دائما فيقول:

كنت غلاما صغيرا لما دخل النبي إلى المدينة فسمعت الولدان يهتفون: جاء النبي جاء محمد ﷺ فخرجت أسعى بينهم تدافعنى الأقدام وأتساقط على الأرض من زحام الناس فأسمعهم يقولون: جاء رسول الله ، جاء الحبيب .. ولا أرى شيئا فأشد في السعى وأنظر فلا أرى شيئا.. حتى سعدت جذع نخلة فنظرت فرأيتة ، فما رأيت أحدا شبيها به يومئذ.. وكنت أظن أن رسول الله ليس بشرا.. فرأيتة رجلا مستدير الوجه كأن وجهه قطعة قمر.. شديد سواد الشعر.. فما دخل المدينة حتى أنار منها كل شيء ، ولم أريوما أحسن ولا أضوأ منه .

وظل أنس يفكر كيف يقترب من النبي؟ وكيف يكون من أصحابه وهو ما زال غلاما صغيرا؟ فذهب أنس إلى أمه أم سليم وقال لها:
يا أمى خذيني أخدم رسول الله فهو ليس له خادم، فهبيني إليه،
وأنت لديك أخى سليم فهو يخدمك.
فقالته له أمه: أو تحب ذلك يا أنس؟
فقال لها: نعم.

ففرحت أمه به ولفته في خمارها و جعلت خمارها رداء له حتى
يلقى النبي فيه.
ثم ذهبت به إلى النبي وقالت له: يا رسول الله، هذا أنس ابني أتيتك
به يخدمك، فهو لك يارسول الله^(١).
فقبله النبي ﷺ ودعا له قائلا: «اللهم أطل عمره.. وأكثر ماله وولده..
واغفر له»^(٢).

فخدم أنس النبي ﷺ عشر سنين حتى وفاة النبي ﷺ، وقد عمر
أنس في الحياة طويلا حتى بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة وأكثر ماله
جدا فكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين.. وكان فيه ريحان
يجيء منه ريح كريح المسك.

وكثر أولاد أنس وتفرعت ذريته حتى بلغوا نحو المائتين نفرا رجالا
ونساء ودفن في حياته من أبنائه وأبناءه.. وكان يقول:
دعا لى حبيبى، فوالله إن مالى لكثير وأنا من أكثر الأنصار مالا.
وإن ولدى وولد ولدى يتعادون على نحو المائة.. وكان لا يعرف عددهم.

(١) دلائل النبوة والسيرة الحلبية وسير أعلام النبلاء وأسد الغابة.

(٢) البخارى فى صحيحه وأحمد فى مسنده وجامع الترمذى.

وأحب النبي ﷺ غلامه أنس حيا كبيرا.. وكان يناديه «أنيس» يدلله بذلك، حتى إنه أرسله في يوم لحاجة فأبطأ أنس وتأخر على النبي جدا.. فخرج النبي ﷺ من بيته في المساء، فرآه يلعب مع الغلمان.. فضحك النبي ﷺ وقال له: «يا أنيس، أنت هنا».. فقال أنس هاأنا ذا ذاهب يارسل الله.

ولم يعنف النبي ﷺ أنسا ولم يلمه على شيء في يوم أبدا.. حتى إن أنس كان يقول:

خدمت النبي عشر سنين فما قال لي شيء فعلته لم فعلته. ولا لشيء تركته لم تركته، وإذا كلمني أحد في شيء أخطأت فيه يقول لهم: «دعوه، فإنما كان هذا بقدر الله»^(١).

وخرج أنس في يوم مع النبي ﷺ فأخذته النبي إلى المسجد.. وكان في المسجد قوم يرفعون أيديهم يدعون الله.

فقال النبي ﷺ لأنس: «تري بأيديهم ما أرى؟».

فقال أنس: وما بأيديهم يا رسول الله؟.

فقال النبي ﷺ: «بأيديهم نور».

فقال أنس: بأبي أنت وأمي ادع الله أن يرينيهِ.

فدعا النبي فرأى أنس النور.. فأسرع أنس والنبي ﷺ نحوهم وهم يرفعون أيديهم^(٢).

(١) البخارى ومسلم واحمد فى المسند والطبرانى فى الكبير وابن حبان.

(٢) فضائل الصحابة والتاريخ الكبير ودلائل النبوة.

القصة الحادية عشرة

عندما أراد ابن سلام رضي الله عنه اختبار النبي صلى الله عليه وسلم

كان هناك حبر وعالم من علماء اليهود اسمه عبد الله بن سلام.. لما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم استبعد أن يكون هو النبي الموعود المبشر به في الكتب السابقة وأسفار الأنبياء لأن اليهود كانوا يظنون أنه خارج من نسلهم؛ فعزم على أن يذهب إلى النبي ليختبره باختبارات كثيرة، وأعد له أسئلة وامتحانات توافق ما عنده من علم بالكتاب المقدس.

ولما وصل ابن سلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورآه.. نظر إلى وجهه وبهره نور محياه الكريم فقال على الفور: أشهد أن هذا الوجه ليس بوجه كذاب، وأسلم عند ذلك.. وترك ما كان قد أعده من سؤال واختبار.

لو لم تكن فيه آية بينة لكان منظره ينبيك بالخبر

وأحب ابن سلام النبي صلى الله عليه وسلم جدا وطلب منه ألا يعلم أحد بإسلامه.. ورجع ابن سلام إلى بيت عمته فقالت له:

يا بن أخي، لم احتبست على؟

فقال لها: يا عمّة كنت عند رسول الله.

فقالت له: عند موسى بن عمران؟

فقال لها: هو أخو موسى.

قالت: هو النبي الذي يبعث آخر الزمان؟

قال: نعم هو.

ثم ذهب ابن سلام فى اليوم التالى. إلى رسول الله وقال له : إن اليهود قوم بهت وإذا علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى.. فخبئنى عندك ثم ادعهم فاسألهم عنى.. فخبأه النبى عنده ثم أرسل إلى اليهود فقال لهم النبى : «أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» فقالوا: حبرنا وابن حبرنا وسيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا فقال «أرايتم إن أسلم؟» فقالوا: أعاذة الله من ذلك.

فخرج عليهم ابن سلام عند ذلك فقال: أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.
فقالوا: هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه.. فقال ابن سلام: هذا ما كنت أحذر يا رسول الله.

ورأى ابن سلام رؤيا فى منامه فحكاها للنبى ﷺ قائلاً: رأيت كأنى فى روضة خضراء جميلة واسعة، وفى وسطها عمود حديد، أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء وفى أعلاه حبل به عروة.. فقبل لى: اصعد على هذا العمود.. فقلت: لا أستطيع.

فخرج رجل ورفع ثيابه وقال لى: اصعد عليه.. فصعدت حتى أمسكت بعروة الحبل ووصلت إلى منتصف العمود، وكلما أردت أن أصعد ثانية أسقط حتى فعلت ذلك مرارا فاستيقظت وكأن العروة فى يدى.. فقال له النبى ﷺ: إن الروضة الخضراء هى الإسلام وإن العروة هى العروة الوثقى وإنه سيبقى على الإسلام حتى يموت^(١).. ولكنه لن ينال الشهادة لأنه لم يصل إلى قمة العمود. وهذا ما حدث لابن سلام: فإنه شهد كل المعارك مع رسول الله ﷺ ولم يستشهد.. ومات شيخا مسلما مؤمنا فى زمن معاوية بن أبى سفيان.

(١) البخارى ومسلم فى الصحيحين وأحمد والنسائى.

القصة الثانية عشرة

الفتى على رضي الله عنه صقر بنى هاشم

كانت حرب بدر بمثابة إعلان عن ميلاد بطل جديد وكتابة اسم فارس من فرسان الجزيرة العربية على صفحات التاريخ.. فلم يعد هناك بيت فى جزيرة العرب بعد غزوة بدر.. إلا دخلته سيرة هذا الفتى الشاب على ابن أبى طالب الذى قهر فرسانا وأسماءً كان الناس يظنونها لا تقهر.. فعلى كان حامل راية النبى ﷺ.. وكان هو الدرع الذى يتصدى أمام رسول الله.. فيرد عنه الأعداء مدحورين.. ولم يبارز على أحدا إلا هزمه، ذلك هو على بن أبى طالب الذى أعطاه النبى الراية يوم خيبر فهزها ثلاثا فأتاه بصفية بنت حيبى ولم يرجع حتى فتح الله عليه.. فقد كانت كل موقعة لعلى هى بدر كبرى فى حقه لا يخرج منها إلا كالصقر الذى لا يرضى بغير العلو فى المكان، والقمم من الجبال، والسمينة من الصيد ويرتفع عن الهزيل والجيف.

فقد كان على شغوفاً بمواجهة الأبطال والمتجبرين.. مسارعاً إلى مبارزة رؤوس القوم المعتدين ومنازلة من يتحاشاه الناس لقوته.. وهو مع ذلك يترفع عن منازلة الجبناء أو استعراض القوة على الضعفاء وقد أخذ على نفسه عهداً ألا يجهز على جريح ولا يقتل من انكشفت عورته.

ومن يتأمل على يجده أحق الناس بلقب «الفارس النبيل» فمن يخوض ساحات الحرب وينزل في غمرات القتال ويصبح أمام عدوه وجها لوجه. لا يبقى أمامه سوى شيئين.. إما أن يُقتل وإما أن يُقتل.. ولذلك فإن المقاتل عادة يتخلى أثناء قتال عدوه عن أى مثالية نرجسية، ويتحول إلى كائن شرس يدفع عدوه بالناب والمخالب.. وإلا كان مصيره القبر إن تكرم خصمه وقام بدفنه.

وأما أن يتحلى أثناء لحظة قتاله لعدوه بمثل عليا وقيم روحية فتلك فتوة مدهشة.. وذلك ما كان يتحلى به أصحاب النبى ﷺ وتراه جليا في صفات على بن أبى طالب.

ذلك الفارس الذى لم يمنع عدوه من الماء برغم أنهم منعه هو وجيشه.. وما أصدق القائل الذى قال: إن عليا لم تغلبه أعداؤه وإنما غلبته أخلاقه. وكى ترى هذه الفروسية العلوية فى أرقى معانى نبيلها لا بد أن تشاهد على يوم الخندق.. فى لحظة قصيرة فى وقتها، طويلة فى معانيها.. وهى لحظة لقائه بعمر بن ود.

ذهب الوثنيون يبحثون عن طريقة لعبور هذا الخندق كى يتمكنوا من إبادة المسلمين فكان من ينزل منهم فيه ويحاول تجاوزه تنهال عليه سهام المسلمين فيردونه قتيلا فى جوفه؛ فحاولوا صنع جسر ومده عليه، ولكن المسلمين أسرعوا فرموهم بالحجارة والسهام حتى ردهم إلى مواقعهم. فاغتاظ الوثنيون من هذه الحيلة التى لم تكن فى حسابهم ولم تخطر لهم ببال فذهبوا يُكرهُونَ حَيْلَهُمْ على عبور الخندق بعد أن فرت منه مذعورة ولكن الخيل نفرت وتراجعت.. فقالوا فى غيظ: هَذِهِ الْمَكِيدَةُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَصْنَعُهَا وَلَا تَكِيدُهَا.

فقال بعضهم: إِنَّ مَعَهُمْ رَجُلًا فَارِسِيًّا يَدْعَى سَلْمَانَ، فَهُوَ الَّذِي أَسَارَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا.

ولما أعييتهم الحيلة عن الوصول إلى المسلمين ثار رجل منهم يدعى عمرو بن ود النجدي يطلب المبارزة من المسلمين.. وكان ابن ود من أقوى فرسان بني عامر، تحكى عنه النوادر في الشجاعة.. وقد بلغ من قوته أنه تنازع في يوم مع رجل على سيف طويل المتن مقبضه من الفضة الخالصة، كل منهم يريد أخذه.. فقال له ابن ود:

بارزنى أنت وقومك جميعا.. فأينا قتل الآخر كان السيف له.

فقال له الرجل: إذا تقتلنى وتصيح أسواق قومي أكواما حطاما، ولكن نحضر لكل واحد منا فرسا، فيضرب كل واحد فرسه ضربة واحدة بالسيف على ظهره. فترى من يوصل سيفه لأبعد موضع في الفرس فيكون الأحق بالسيف.

فوافق ابن ود، وبدأ الرجل، فضرب فوصل السيف إلى بطن الفرس.. ثم ضرب ابن ود حتى مر بسيفه وأخرجه من أسفل جسد الفرس فقسم الفرس قسمتين.

كان هذا هو ابن ود الذي راح يصول ويجول أمام المسلمين شاهرا سيفه وهو يهتف: ألا من مبارز بالسيف يامعاشر الجبناء.. فهم على بن أبى طالب بالنهوض له وقال: أنا له يانبى الله.

ولكن النبى ﷺ قال له: «اجلس فإنه عمرو بن ود».

فراح ابن ود يكرر النداء ويقول فى سخريه منهم: أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزن لى رجلا؟.

فقام على وقال: أنا له يارسول الله، فقال له النبي.. «اجلس إنه عمرو بن ود».

فصاح ابن ود يهتف قائلاً:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام على وقال: أنا له يارسول الله، فقال له النبي ﷺ: «إنه عمرو».. فرد على قائلاً: وإن كان عمرا.. فأذن له النبي ﷺ وأعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديد، ثم رفع عمامته إلى السماء وهو يقول.. «إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا على أخى وابن عمي»^(١).. ثم وضع العمامة على رأس على، وانطلق على والنبي ﷺ ينظر إليه ويدعو الله قائلاً.. «اللهم أعنه عليه».. «اللهم هذا أخى وابن عمي، فلا تدرني فردا وأنت خير الوارثين»^(٢).

وهنا تلمح في كلمات النبي ﷺ محبة لعلى تفوق محبة القائد للجندى أو التابع للمتبوع، ولكنها محبة الأصل لفرعه وحنين الكل للجزء.. وهو ﷺ الذى كان يقول لِعَلِيٍّ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»^(٣).

(١) مجمع الزوائد والواقدي كتاب المغازي والسير.

(٢) رواه الديلمي وأبي الفرج في سيرة الأمين وكنز العمال.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

وهارون إن كان أخا موسى ووزيره.. فإن عليا هو أقرب الناس للنبي
نسبا فهو ابن عمه الذي رباه وهو زوج ابنته وخزينة ذريته.. فهو من
نفس النسيج الهاشمي الذي اصطفى الله منه نبيه ﷺ ولم تكن محبة
النبي له لمجرد النسب والقرابة، فالنبي ﷺ هو من قضى على عصبية
الجاهلية وحجب الأنساب.. ومحبة النبي لآل بيته ليست محبة الرجل
بطبعه لأهله.. ولكنها محبة الصفة التي زكاها الله في كتابه وشهد لها
بما يشرفها في عليائه قائلا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب - ٣٣

﴿ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ هود - ٧٣
فهو حب لله وفي الله لأهل الله.. فعندما يكون الجسد مطهرا والعمل
شريف فهو أعلى الدرجات.. ولذلك كانت محبة النبي لعلي: فهو مع
قربته الزكية من العترة الندية، هو أيضا من الصالحين الذين تربوا في
حجر النبوة وتغذوا على ألبان الحكمة، وتشربت روحه بآيات التنزيل.
فقد كان يسمع القرآن من النبي غضا طريا حديث العهد بالنزول وهو
صبي صغير.. ويحمل سيفه في سبيل الله مع النبي في كل وقعة وهو
فتى حديث السن، فقد جمع المجد من كل أطرافه.

وهذا ما يفسر لنا حرص النبي ﷺ عليه وشفقته ومحبته له وهو يتقدم
لمبارزة عمرو بن ود أعتى فرسان العرب.. وتقدم علي بن أبي طالب
نحو ابن ود وهو يهتف قائلا.

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق ينجي كل فائز

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند المهزاهز

فنظر إليه ابن ود وكأنه استصغره فسأله قائلاً: من أنت يا فتى؟
فأجابه على: أنا على بن أبي طالب.

فقال له ابن ود في زهو وكبر: ارجع فأنت غلامٌ صغير.. إنما أردت
شَيْخِي قُرَيْشِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ. أو من أعمامك من هو أشد منك.
فقال له على: إن قریشا تتحدث عنك أنك قلت. لا يخيبرني أحد بين
ثلاث خصال إلا أجيب ولو إلى واحدة منها؟.

فقال ابن ود: أجل.

قال على: فإني أدعوك إلى الإسلام.

فقال ابن ود: نَحْ هذه.

قال على: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن يتبعك من قریش إلى
مكة. فإن يك محمد صادقاً فأنتم أعلى به مقاماً، وإن يك كاذباً كفتكم
باقي العرب أمره

فقال ابن ود: إذن تتحدث نساء قریش عني أن غلاماً خدعني،
وينشد الشعراء أشعارهم أنى جبننت، ورجعت على عقبي من الحرب،
وخذلت قوماً رأسوني عليهم.

وعندها قال له على: فإني أدعوك إلى أن تنزل من على فرسك
فتبارزني راجلاً - يعني على رجليك فضحك عمرو وقال في سخرية:
إِنَّ هَذِهِ الْخَصْلَةُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ يَجْرُؤُ عَلَيَّ طَلْبَهَا مِنِّي..
ارجع يا فتى فما أحب قتلك.

فقال علي: ولكني والله أحب قتلك.

فجن عمرو من كلمة علي، فقفز غاضبا من علي فرسه. رافعا سيفه كأنه شعلة نار، وضرب قائمة فرسه بالسيف فعقرها. ثم أقبل يهوى نحو علي بن أبي طالب فضربه بالسيف على رأسه، فأصاب السيف الدرقة فقطعها. وكاد السيف أن يصل إلى رأس علي كرم الله وجهه. لولا خفة حركته وسرعة انحنائه.

فضربه علي بالسيف أسفل رجله فأطاح بها فوق ابن ود علي قفاه. وجثم علي بن أبي طالب فوق صدره وتصارعا فتار التراب والغبار حتى حجبيهما لوقت قصير.. ثم انقشع وتجلي المشهد عن جسد ابن ود يتدحرج مقتولا حتى سقط في الخندق.

فكبر المسلمون وسمع النبي ﷺ تكبيرهم فعرف أن علي قتل ابن ود.. ثم عاد إليهم علي وهم يحيطون به فرحا وأقبل على النبي ﷺ فتلفاه النبي متهللا وقال له.. «كيف وجدت نفسك معه يا علي؟».

فأجابه علي: وجدتته لو كان أهل مكة كلهم معه في جانب. وأنا في جانب لقدرت عليهم يارسول الله^(١).

ذلك هو علي بن أبي طالب الذي قال فيه النبي ﷺ «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(٢).

(١) تفسير الفخر الرازي والسيرة الحلبية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه.

القصة الثالثة عشرة

دُعُوثُ رضي الله عنه عندما أراد قتل النبي ﷺ

وقصته مع السيف

وكم من عدو أتاك منكرا	فرد بفضل الله من أهل شريعتك
وكم من وجه أتاك مبغضا	فعاد بوجه مشرق بمحبتك
وكم من سيف أراد منك غرة	فما عاد إلا سيفاً لنصرتك
فأنت البحر الخضم جميعه	والماء ينبع من ندى راحتك
وأنت الشمس يشرق نورها	وكل الضوء من بريق أشعتك

قام الوثنيون في مكة بتحريض قبيلة تدعى بنى ثعلبة مجاورة للمدينة على قتال المسلمين.. لأن هذه القبيلة كانت تعيش على السلب والنهب والغارات فوسوس لها المشركون أن النبي ﷺ وأتباعه أصبحوا قوة كبيرة في العرب وأن هذا خطر عظيم عليهم.

لأنهم بذلك لن يتمكنوا من ممارسة القرصنة على القري وقطع الطريق على القوافل لأن دين محمد يحرم السرقة والظلم.

فثار بنو ثعلبة وتجمعوا في أعداد غفيرة وحملوا السلاح وأعدوا للهجوم على المدينة، وكان قائدهم رجل متجبر يدعى دُعُوثُ بْنُ مُحَارِبٍ وكان من أشد العرب فتكا وغدرا.. وتحركوا بجمعهم حتى وصلوا في المسير إلى موضع يسمى ذى أمر.

وبلغ النبي ﷺ هذا الخبر فَخَرَجَ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ.. حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى مَضِيقِ الْخَبِيثِ شَاهَدُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ قَدْ خَرَجَ لِيَكُونَ دَلِيلًا لَهُمْ فَتَرَكَ قَوْمَهُ وَرَاءَهُ وَأَقْبَلَ أَمَامَهُمْ بِمَسِيرَةِ أَيَّامٍ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ قَبْلَهُمْ وَيُخْبِرَهُمْ كَيْفَ الْأَمْرُ فِيهَا؟ فَالْقَى الْمُسْلِمُونَ الْقَبِضَ عَلَيْهِ وَسَاقُوهُ حَتَّى أَدْخَلُوهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

فَلَمَّا جَلَسَ الدَّلِيلُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَاهَدَهُ وَسَمِعَ مِنْهُ. رَقَّ قَلْبُهُ كَثِيرًا وَأَسْلَمَ وَأَخْلَصَ لِلَّهِ.. وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَنْ يُلَاقُوكَ إِنْ سَمِعُوا بِمَسِيرِكَ.. سَوْفَ يَهْرَبُونَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ. وَأَنَا سَائِرٌ مَعَكَ وَذَلِكَ عَلَى عَوْرَتِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمْ.

وَبِالْفِعْلِ سَارَ الدَّلِيلُ أَمَامَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ يَدْلُهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى أَمَاكِنِ وَكَمَاثِنِ بَنِي ثَعْلَبَةَ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقًا جَعَلَهُمْ يَهْبِطُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ كَثِيبٍ عَالٍ.. فَلَمَّا رَأَتْ بَنُو ثَعْلَبَةَ ذَلِكَ وَتَفَاجَعَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَوَقَّهُمْ هَرَبَتْ مِنْهُ فِي الْوُدْيَانِ وَفَوْقَ أَعْنَاقِ الْجِبَالِ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا فَرَّ هَارِبًا.. فَلَمْ يُلَاقِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَحَدًا. وَلَمْ يَحِبْ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ.. إِلَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ.

وَعَسَكَرَ الْمُسْلِمُونَ هُنَاكَ وَمَكَّثُوا شَهْرًا حَتَّى سَمِعَتْ بِهِمُ الْقَبَائِلُ، وَهَابَهُمْ مَنْ كَانَ يَنْوِي الشَّرَّ وَالْهَجُومَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَعَادُوا إِلَى قُرَاهِمُ كَمَا تَعُودُ الْحَيَاتُ إِلَى جُحُورِهَا.

وَرَأَى الْمُسْلِمُونَ هُنَاكَ يَصِلُونَ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ.. وَأَرْسَلَتْ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَطْرًا بَلَّتْ ثِيَابَهُمْ.. فَارْحَاضَهُمْ بَعْضُهُمْ يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَبَعْضُهُمْ يَمْلَأُ قَرْبَتَهُ وَبَعْضُهُمْ يَسْقِي رَاكِلَتَهُ وَانْشَغَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِشَأْنِهِ.

وانفرد النبي ﷺ بعيدا عنهم فنَزَعَ ثِيَابَهُ وَنَشَرَهَا لِتَجِفَّ فَأَلْقَاهَا عَلَى شَجَرَةٍ، ثُمَّ اضْطَجَعَ تَحْتَهَا مَلْتَحِفًا بِرِدَائِهِ.. كل ذلك وَالْأَعْرَابُ الْهَارِبُونَ من بنى ثعلبة يَنْظُرُونَ من فوق الجبال البعيدة إِلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُ.
فَقَالَتْ الْأَعْرَابُ لِذُعْثُورٍ، وَكَانَ زَعِيمَهُمْ وَأَشَجَعَهُمْ: هَاهُو قَدْ أَمَكَّنَكَ قَتْلَ مُحَمَّدٍ وَقَدْ انْفَرَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ. حَيْثُ إِنَّ اسْتِعَاثَ بِأَصْحَابِهِ لَمْ يَلْحَقْ أَنْ يُغَثَّ حَتَّى تَقْتُلَهُ.

فَاخْتَارَ ذُعْثُورٌ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِهِمْ صَارِمًا، ثُمَّ أَقْبَلَ يَتَخَفَى وَيَتَسَلَّلُ مُشْتَمِلًا عَلَى السَّيْفِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْهَرَ سَيْفَهُ عَالِيًا، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ».

فَارْتَمَدَ لَهَا ذُعْثُورٌ وَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ بِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ لَهُ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ»؟
فَقَالَ ذُعْثُورٌ: لَا أَحَدَ يَا مُحَمَّدَ فَكُنْ خَيْرَ آخِذٍ.

فَعَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَسَامَحَهُ وَأَعْطَاهُ سَيْفَهُ... فَقَالَ ذُعْثُورٌ: فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا أَكْثِرُ عَلَيْكَ جَمْعًا أَبَدًا.
ثُمَّ مَضَى يَمْشِي، ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ ثَانِيَةً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي.. ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ وَقَالُوا:
أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ وَقَدْ أَمَكَّنَكَ قَتْلَهُ وَالسَّيْفُ فِي يَدِكَ؟

فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ وَلَكِنِّي نَظَرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ مَعَهُ أَبْيَضُ طَوِيلٌ دَفَعَ فِي صَدْرِي فَوَقَعْتُ لِظَهْرِي وَسَقَطَ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ

الملائكة وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. والله لا أكثُرُ
عليه أبداً، ولا أعين عليه أحداً.. وراح يدعو قومه إلى الإسلام.

وأنزل الله على نبيه في الكتاب ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ المائدة - ١١

ثم رجع إلى النبي ﷺ وكان جالسا في المسجد فقال:

يا محمد لقد كنت وما وجه أبغض إلى من وجهك. ولا دين أبغض
إلى من دينك، ولا بلد أبغض إلى من بلدك، ثم لقد أصبحت وما وجه
أحب إلى من وجهك، ولا دين أحب إلى من دينك، ولا بلد أحب إلى من
بلدك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

فقال النبي ﷺ «ولماذا لم تسلم وأنت بين يدي؟».

فأجاب: خشيت أن تتحدث العرب أن محمداً يجبر الناس على
الدخول في الإسلام بالسيف^(١).

(١) السيرة الحلبية ومغازي الواقدي ودلائل النبوة.

القصة الرابعة عشرة

جبار بن سلمى رضي الله عنه من قاطع طريق إلى صحبة النبي صلى الله عليه وسلم

جبار بن سلمى.. اسمه الأول يوحى بالقوة والتجبر.. واسمه الأخير سلام وتسليم.. كذلك كان جبار.. رجلا قاطع طريق لا مأوى له.. يعيش في عراء الصحراء.. وقد اكتسب من طباع البادية القاسية ما جعل قلبه أشد من الحديد وأقسى من الصخر.

ارتضى جبار لنفسه أن يكون تابعا لطاغية من طغاة العرب وسفاح متمرد وهو عامر بن الطفيل.. فكان جبار وزيره وسيفه الذى يقتل به ويسفك الدماء دون أدنى تفكير.. فهو يقطع الرقاب ويمثل بالأجساد مقابل حفنة من المال أو سلب متاع المسافر واقتناص راحلته.

وأحيانا يقتل بلا مقابل، إذ صار القتل وإزهاق الأرواح طبعا فيه يستلذ بممارسته.. لكن لأن لكل إنسان من اسمه نصيبا فقد كانت عاقبة جبار بن سلمى أن تحول لسلام وهداية بل وصار صحابيا جليلا من صحابة رسول الله.. وإن كان تحوله ذلك يعد معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجبار كان نمة من لمسات النبي التي كان يلمس بها أعتى الرجال وأشدهم كفرا فيحولهم إلى نساك وزهاد يذوبون حبا ويغضون رحمة ويجعلون من البطولة عنوانا لهم.

تلك اللمسة المحمدية التي تحمل قوة النبي في الهداية وتظهر فتوته في صهر معادن الرجال وإخراج أطيب ما فيها.. فليس العالم القوى هو الذى يخطب فى أناس مؤمنين يذهبون إليه فى يوم الجمعة يلبسون ثيابا بيضا ويضعون العطر ويجلسون ليستمعون له.. وإنما العالم القوى الجهبذ هو الذى يأتى بالعصاة وقطاع الطرق فيجعل منهم تائبين مهتدين فتكون له القوة أن يهدى بأمر الله.. ولذلك يقول رب العزة.. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أَمْرِنَا﴾ السجدة - ٢٤

وكما يروى فى الحديث القدسى (من رد إلى شاردا كتبته تحت العرش جهبذا.. ومن كتبته تحت العرش جهبذا لا أعذبه أبدا).

والآن فلنرحل سويا لنشاهد جبار السلمى ﷺ ونعرف قصته ونصحه فى رحلته من قطع الطريق إلى صحبة النبي ﷺ.

كان ذلك عندما قَدِمَ رجل يدعى عَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي الْبَرَاءِ عَلَى النبي ﷺ فى المدينة وكان أبوه أبو البراء شيخا كبيرا مريضا: فأرسل ابنه وابن أخيه. إلى النبي ﷺ.. وقال ابنه للنبي ﷺ: إِنَّهُ قَدْ بَعَثَ أَبِي يَسْتَشْفِيكَ مِنْ وَجَعٍ بِهِ - وَكَانَتْ بِهِ مَرَضُ الدَّبِيلَةِ، فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ ﷺ قِطْعَةَ حِجَارَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَتَغَلَّ فِيهَا مِنْ رِيْقِهِ الشَّرِيفِ، ثُمَّ نَاوَلَهُ إِيَّاهَا وَقَالَ لَهُ: «دُفِّئْ بِمَاءٍ، ثُمَّ اسْقِهَا إِيَّاهُ».. فَأَرْسَلُوهَا إِلَيْهِ وَفَعَلَ ذَلِكَ فَبَرِئَ وَشَفِيَ مِنْ مَرَضِهِ. فَأَقْبَلَ أَبُو الْبَرَاءِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ بَعْضُ الْهَدَايَا فَأَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ فَرَسَيْنِ وَرَاحِلَتَيْنِ، فَرَفِضَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا وَرَاحَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ وَيَعْرُضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ.. فَأَنْصَتَ أَبُو الْبَرَاءِ وَاسْتَحْسَنَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ، وَلَمْ يُبْعِدْ، وَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرَى أَمْرًا هَذَا أَمْرًا حَسَنًا شَرِيفًا، وَقَوْمِي خَلْفِي كَثِيرٌ، فَلَوْ أَنَّكَ بَعَثْتَ مَعِيَ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَيْهِمْ لَرَجَوْتُ أَنْ يُجِيبُوا دَعْوَتَكَ وَيَتَّبِعُوا أَمْرَكَ، فَإِنْ هُمْ اتَّبَعُوكَ فَمَا أَعَزَّ أَمْرَكَ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ...» لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ أَعْرَابٌ أَهْلُ غَدْرٍ وَخِيَانَةٍ.. وَلَكِنْ أَبُو الْبِرَاءِ تَعَهَّدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِحِمَايَتِهِمْ وَقَالَ: لَا تَخَفْ عَلَيْهِمْ، أَنَا لَهُمْ جَارٌ أَنْ يَعْرِضَ لَهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ. وَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الْأَنْصَارِ سَبْعُونَ رَجُلًا مُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ يُسَمَّوْنَ الْقُرَاءَ لِكثْرَةِ قِرَاءَتِهِمُ لِلْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُ.. وَكَانُوا إِذَا أَمَسُوا أَتَوْا إِلَى وَادٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فَذَكَرُوا اللَّهَ وَتَدَارَسُوا الْقُرْآنَ وَصَلُّوا، حَتَّى إِذَا جَاءَ وَجْهَ الصُّبْحِ ذَهَبُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْمَاءِ الْعَذْبِ وَيَحْطِبُونَ مِنْ الْحَطَبِ، ثُمَّ يَجِئُونَ بِذَلِكَ إِلَى حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَهْلِ الصَّفَةِ فِي مَسْجِدِهِ. فَتَحَمَّسَ هَؤُلَاءِ الْقُرَاءُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَ أَبِي الْبِرَاءِ لِدَعْوَةِ أَهْلِ نَجْدٍ إِلَى اللَّهِ. وَقَدْ تَمَنَّوْا أَنْ يَلْقَوْا مِنَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا لَقِيَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ أَرْسَلُوا مِنْ قَبْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَشْهَدُوا فِي مَكَّةَ.

وَتَخَوَّفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ مِنْ رَجُلٍ اسْمُهُ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ، كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَعْتَى قَطَاعِ الطَّرِيقِ، مَعْرُوفٌ بِالْغَدْرِ وَالْبَطْشِ بَيْنَ الْأَعْرَابِ وَمَعَهُ جُمُوعٌ تَخْصَمُوا فِي السَّلْبِ وَالنَّهْبِ وَالْقَتْلِ وَقَدْ جَعَلُوهُ زَعِيمًا لَهُمْ. فَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ رِسَالَةً وَجَعَلَهَا مَعَ أَصْحَابِهِ الْقُرَاءَ يَعْطُونَهَا لَهُ إِذَا مَرُّوا بِهِ فِي سَفَرِهِمْ.

فَلَمَّا ارْتَحَلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَبَلَّغُوا فِي الْمَسِيرِ عِنْدَ بئرِ مَعُونَةَ وَجَدُوا قَاطِعَ الطَّرِيقِ عَامِرَ بْنَ الطَّفِيلِ فِي جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنْ عَصَابَتِهِ وَمَعَهُ تَابِعَاةُ الْمُخْلِصَانِ

الأول وزيره جبار بن سلمى والثانى خادمه أريد.. الرجلان اللذان لا يعرفان فى حياتهما سوى القتل وسفك الدماء ويعيشان فى البرية مع الذئاب والوحوش.

فى ذلك الوقت كان جبار له مدة طويلة فى البرية متنكبا قوسه منتظرا فريسته التى ستمر عبر الوادى الذى هو فيه.

ينظر إلى سيفه المتعطش للدماء وكأنما يعده بأن يسقيه قريبا من أول ضحاياه الذين سيلقيهم القدر للمرور من طريقه.. ثم يسلب ما مع ضحيته من مال أو تجارة أو ذهب ويقدمها لزعيمهم عامر الذى يقوم فى النهاية بتوزيع ذلك النهب عليهم.

وتقدم أحد القراء وهو ابن ملحان بالكتاب الذى فيه رسالة النبى ﷺ إلى قاطع الطريق عامر بن الطفيل.. ولكن عامر ألقى الكتاب على الأرض ولم يقرأ الرسالة ثم وثب على الصحابى ابن ملحان فهوى بسيفه عليه فقتله. وصاح بعصابته فأحاطت بالقراء وشكلوا حولهم دائرة من السيوف والرماح.

فصرخ فيهم ابن أبى البراء إن هؤلاء القلة من المسلمين معهم عهد وجوار من أبيه أبو البراء.

فلم يبال عامر بهذا الجوار برغم أن أبا البراء يعتبر من عمومته. وقال لابنه إن أباك أبا البراء شيخ قد خرف.. ثم أمر قبيلته بنى عامر بالهجوم معهم على القراء ولكن قبيلته رفضت الخروج معه حفاظا على جوار أبى البراء. فقال لهم: أتعضون أمرى وأنا سيد العرب وفارس البطحاء.. لتعلمن طاعة القبائل لى.

فأمر عامر القبائل القريبة منهم وهم قبيلة عصابة ورعل أن يهجموا على القراء ويشاركوا عصابته في قتلهم، فاستجابوا له وكانوا يطيعون أمره مخافة بطشه وغدره.

وكانت مجرد الإشارة من يد عامر بن الطفيل إلى عصابته كافية لهم لكي يندفعوا كالطوفان الهادر بقيادة جبار فيقتلون من يقابلهم دون أن يعرفوا حتى سبب قتلهم لهذه الأرواح.

فهجمت كل هذه الجموع على القراء المسلمين الذين أمسكوا سيوفهم وراحوا يصدون هذا الاعتداء البربري حتى سقطوا جميعا شهداء.

واندفع جبار بسيفه يسقيه من دماء المسلمين ويقتلهم بكل ضراوة حتى شاهد رجلا ممن تبقى من القراء وهو عامر بن فهيرة الذي كان واقفا كالجبل يقرأ القرآن في ثبات وطمأنينة والموت يعصف بالرءوس من حوله.. حتى إن كل عصابة الشر كانوا يتهيبون الهجوم عليه لثباته العجيب. فوثب عليه جبار من خلفه وطعنه برمحه في مقتل، فصاح ابن فهيرة قائلاً: فزت والله.. وهنا تعجب جبار وسأل نفسه ما معنى كلمة هذا الرجل فزت والله؟ وأى فوز هذا وليس به إلا القتل؟!.

وكانت لكلمات ابن فهيرة ومشهده أثر عجيب في نفس جبار.. فقد اعتزل المعركة وقتها وجلس في ناحية يتفكر في كلمة هذا الرجل الذي يقضى أنفاسه قتيلا والدماء تتفجر من جسده وهو راض سعيد. لا بد أن في الأمر شيء ما غير مفهوم.. شيء لم تتعود عليه الطباع البشرية التي ترتعد من الموت وتكره القتل.. إنه شيء غريب خارق لطباع الإنسان المألوفة.

وهكذا عرف الفكر طريق عقل جبار.. وهو الرجل الذى كان لا يفكر ولا يشغل باله بشيء ولم يكن من طبعه التأمل ولا تدبر العواقب.. ولكن شخصية عنيفة مثل شخصية جبار لا يحركها إلا حدث قوى خارق كى يؤثر فى طبيعته.

استمر جبار فى تعجبه وفكرته وكأنه لم يعد يشعر بما يجرى حوله فى أرض المعركة.

فقد اندفع أصحابه اللصوص نحو جثمان بن فهيرة يريدون التمثيل به، ولكن الله صنع آية أعجزتهم فرفع جسد بن فهيرة إلى أعلى فى الهواء حتى غاب عن عيونهم وهم ينظرون.. فأصابتهم الدهشة وقال بعضهم: سمعنا أن محمدا ساحر فعسى أن يكون هذا من سحره بأصحابه.. ووقف جبار مذهولا لا ينطق وهو يرى هذه الآية العجيبة. فلم يكن ارتفاع جسد ضحيته أمامه فى الهواء بأقل عجبا من كلمته وهو يلفظ أنفاسه.

وكان آخر من تبقى حيا من القراء هو عروة بن الصلت فحرص المشركون أن يؤمنوه ولا يقتلوه وكانت تربطه قرابة بعامر. فأبى أن يقبل منهم أمانهم وقال لهم: لا أقبل لكم أمانا ولا أرغب بنفسى عن مصرع أصحابى، ثم رفع سيفه يحاربهم وحده.. وقال حين أحاطوا به: اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولاك عنا السلام غيرك، فأقرأ عليه منا السلام.

ودافع هجمتهم وحده حتى استشهد.. فأخبر الملك جبريل عليه السلام النبى بذلك. وأنزل الله على نبيه ﷺ فى شأنهم قرآنا.

بَلَّغُوا قَوْمَنَا أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ) وكانت هذه الآية مما نسخه الله بآيات أخرى^(١).

فحزن النبي ﷺ لمقتل أصحابه بسبب جوار أبي البراء وقال: «هذا عمل أبي البراء قد كنت لهذا متخوفا كارها».. ثم دعا ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ اهْدِ بَنِي عَامِرٍ، واطْلُبْ خُفْرَتِي مِنْ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ».. «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَيَّ مُضِرٍّ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِنَبِيِّ لِحْيَانَ وَزَعْبٍ وَرَعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ؛ فَإِنَّهُمْ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِنَبِيِّ لِحْيَانَ وَعُضْلَ وَالْقَارَةَ. اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي مَكَّةَ غِفَارًا غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ».. ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً. يقنت بذلك.

وفي هذه الأثناء كان هناك اثنان من المسلمين في سفر لهما وهما الحارثُ، وعمروُ بن أمية، وقد وصلا إلى موضع قريب من مكان قتل القراء المسلمين.. فجلسا تحت شجرة كي يستريحا.. فلاحظا أن الطير تحوم حول وادي بمقربة منهما.

فارتابا لعُكُوفِ الطَّيْرِ عَلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ لِأَنَّ الطَّيُورَ الْجَارِحَةَ كَانَتْ تَحُومُ حَوْلَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ قَتَلِي.

فقال أحدهم: قُتِلَ وَاللَّهِ أَصْحَابُنَا، وَاللَّهِ مَا قَتَلَ أَصْحَابَنَا إِلَّا أَهْلُ نَجْدٍ.. ثم صعد على هضبة مرتفعة من الأرض لينظر، فإذا به يرى أصحابهم صرعى في دمائهم وإذا الخيل واقفة حول جثثهم، فقال الحارثُ لعمرو: ماذا نصنع؟

(١) مغازي الواقدي وصحيح البخاري

فأجابه عمرو: أَرَى أَنْ أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأُخْبِرَهُ بِمَا حَدَثَ.
ولكن الحارثُ قال: مَا كُنْتُ لِأَتَأَخَّرَ عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فِيهِ إِخْوَتِي.
فذهبا سويا إلى العدو، فأمسكوا بهما وأخذوهما أسرى وكانوا قد
شبعوا من الدماء ولم تعد لديهم رغبة في المزيد، فقالوا للحارث: مَا
تُحِبُّ أَنْ نَصْنَعَ بِكَ، فَإِنَّا لَا نُحِبُّ قَتْلَكَ؟ ولكن الحارث لم يتمالك نفسه
عندما رأى أجساد إخوانه ملقاة على الأرض غارقة في دماهم الزكية،
فاندفع فيهم وهو يصيح ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه
أصحابي.

ثم نجح أن يسترد سيفه منهم وقاتلهم حتى قتل منهم اثنين ثم
تجمعوا عليه بالرماح حتى تعلق جسده فيها فقتلوه.. وأما عمرو فقد
استسلم لهم فلم يقاومهم.. فاقتاده عامر بن الطفيل أسيرا ثم جذ شعر
رأسه إمعانا في إذلاله.. ومضى به على جثث أصحابه القتلى وقال له:
تَعَرَّفْ إِلَى أَصْحَابِكَ وَأَخْبِرْنِي عَنْ كُلِّ قَتِيلٍ مِنْ أَى قَبِيلَةٍ؟ فطاف عليهم
عمرو وتعرف إليهم جميعا.. فَقَالَ لَهُ عامر بن الطفيل: هَلْ تَفْقَدُ مِنْهُمْ
أَحَدًا؟ فأجابه عمرو: نعم، أَفْقَدُ مَوْئِيَّ لِأَبِي بَكْرٍ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ فَهَيْرَةَ.
فَقَالَ عامر بن الطفيل: كَيْفَ كَانَ حَالُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟ فأجابه:
كَانَ مِنْ أَفْضَلِنَا وَمِنْ أَوْلِي أَصْحَابِ نَبِيِّنَا.. فَقَالَ عامر وهو يشير إلى تابعه
جبار: أَلَا أُخْبِرُكَ خَبْرَهُ، هَذَا الرَّجُلُ طَعَنَهُ بِرُمْحِهِ، ثُمَّ انْتَزَعَ رُمْحَهُ مِنْهُ،
فَذَهَبَ بِالرَّجُلِ عُلُوًّا فِي السَّمَاءِ حَتَّى أَصْبَحْنَا وَحَقَّ آلِهَتُنَا مَا نَرَاهُ.
فأقبل عليه جبار بن سلمى يتحدث وكأنما وجد في عمرو بغيته فقال:

إنى طعنته بالرمح بين كتفيه حتى رأيت سنان الرمح يخرج من صدره فسمِعته يَقُولُ: فُزْتُ وَاللَّهِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا قَوْلُهُ فُزْتُ؟.. كانت كلمات جبار لعمرو تحمل اللهفة والتشويق الواضح وكأنه يبحث عن تفسير لهذه الكلمات ويتمنى أن يجد جوابا لما يدور في ذهنه من أسئلة. فأجابه عمرو قائلا وقد ذرفت من عينيه الدموع: فاز بالجنة. ذَلِكَ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

سمع جبار كلمة.. الجنة.. فأخذته إلى أجواء بعيدة.. وحلقت به في عالم غيبي نقله من مرارة واقعه الكريه.. لأول مرة يشعر جبار بعالم آخر غير الأرض وغير عالم الدماء والجثث الذى لا يعرف سواه.. إنه عالم السماء.. وقد صدق ظنه بأن فى الأمر شيئا غير عادى.. شيئا غير مألوف فى عالم الطبيعة المادية ومجتمع الغاب الذى يعيش فيه.. فوقع الإسلام فى قلب جبار وملأت أنوار الإيمان صدره فاعتزل زعيمه عامر ابن الطفيل وجلس فى ناحية بعيدة عن المعسكر يعيد التفكير فيما حدث. وأما عمرو فقد أطلقوا صراحه ومضى فى طريقه بلا راحة حتى مشى على قدميه فى الصحراء أربعة أيام.. حتى أنهكه التعب ووجد ظل ربوة فنزل يستريح تحتها، وبينما هو قد ارتمى فى ظلها يلتقط أنفاسه، رأى اثنين مسافرين مقبلين عليه يريدان أن ينزلا أيضا فى هذا الظل. فسألها عمرو: من أنتما؟

فقالا له: نحن من بنى عامر قوم عامر بن الطفيل. فما أن سمع عمرو هذه الكلمات وعرف أنهما من قوم هذا السفاح إلا وتمثلت فى مخيلته مشهد أصحابه القراء الصالحين وهم صرعى

مخرجين في الدماء.. وهاهى ذى الفرصة قد وافته كى يثار لهم بعض الشيء، فهجم على الاثنين فقتلتهما.. وهو يظن بذلك أنه فعل شيئا سوف يرضى عنه النبي ﷺ، وكان هؤلاء الاثنان من بيوت بنى عامر التى صنع معهم النبي قبل ذلك عهد أمان وجوار.

فلما وصل عمرو إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ بما حدث وأنه قتل هذين الرجلين من قبيلة السفاح عامر بن الطفيل ثارا للقراء الشهداء، غضب النبي ﷺ جدا وعزم أن يدفع ديتهما مثل دية المسلمين الأحرار لا تنقص شيئا وقال النبي ﷺ لعمرو فى لهجة الغاضب: «بئس ما صنعت، قتلْت رَجُلَيْنِ كَانَ لَهُمَا مِنِّي أَمَانٌ وَجَوَارٌ، لِأَيِّنُهُمَا - يعنى لأدفعن ديتهما».

ووصل ابن أبى البراء إلى أبيه، فلما رآه مقبلا عليه وحده وليس معه أحد من القراء أصحاب النبي ﷺ ارتاب أبوه فى الأمر فسأله قائلا: ما فعلت ذمة أبيك وجواره؟

فأجابه ابنه وهو يشعر بالمرارة والحزى: نَقَضْتَهَا صَرِيَةً بِسَيْفٍ وَطَعْنَةً بِرُمْحٍ.. ثم قص على أبيه ما حدث فَشَقَّ عَلَيْهِ مَا فَعَلَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ - وَمَا صَنَعَ بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ فى حَسْرَةٍ: أَخْفَرْنِي فى ذِمَّتِي ابْنَ أَخِي مِنْ بَيْنِ بَنِي عَامِرٍ وَأَخْزَانِي فى جَوَارِي، وَأَنَا لَا حَرَكَةَ بِي مِنَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ.

ثم جمع أبو البراء بعضا من قومه فأركبوه جملة وركب ابنه معهم وانطلقوا حتى لحقوا بعامر بن الطفيل فتقدم ابن أبى البراء على فرسه فطعن عامر برمحه طعنة طائشة لم تصب سوى ثيابه. فَتَصَايَحَ النَّاسُ وَغَضِبَ أَرِيدُ تَابِعَ عَامِرَ وَأَرَادَ قَتْلَ ابْنِ أَبِي الْبِرَاءِ وَأَبِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ عَامِرُ ابْنُ الطَّفِيلِ: إِنَّهَا لَمْ تَضُرَّنِي، إِنَّهَا لَمْ تَضُرَّنِي، وَقَدْ عَفَوْتُ عَنْ عَمِي.

فاجتمع شيوخ قومه عليه يقولون له: يا عامر إن الناس قد أسلموا حتى العتاة منهم فادخل في الإسلام.. فرد عليهم عامر قائلاً: لقد كنت على وشك أن تتبع العرب عقبي، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟. فأخبروه بأن النبي ﷺ قد دانت له المدينة وأكثر قبائل العرب.. فانتوى عامر أن يذهب معهم للنبي ﷺ وأن يساومه على أن تكون له زعامة العرب بعد النبي ﷺ أو أن يتخلص منه فيقتله.

فانطلق وفد بنى عامر شبابا وشيوخا ومعهم عامر بن الطفيل، وأربد ابن مقيس، وجبار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم، وقدم عامر معهم وهو ينوى الغدر بالنبي ﷺ.

وكانت هناك عندهم بعض المخاوف أن ينتقم منهم النبي ﷺ جزاء لما فعلوه مع أصحابه. ولكن أبى البراء طمأنهم قائلاً: إن محمداً من أحسن الناس خلقاً وهو يكرم أضيافه ولا يغدر بمن أتاه.. فلما وصلوا إلى المدينة ودخلوا على النبي ﷺ أعطاهم أماناً وأكرم ضيافتهم.. فما أن وقعت عين جبار على النبي ﷺ وملاً نظره من هيئته ونوره حتى انطلق من بين قومه. فجلس إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه ثم ذهب يخبر النبي ﷺ بما رأى من مقتل ابن فهيرة وكيف أنه ندم على ذلك، وأنه شاهد رفعه إلى السماء علواً، فتبسم له النبي ﷺ ولم يعاتبه وقال له معلماً «فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَارَتْ جُنَّتَهُ وَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ»^(١).

وأحس جبار بأن الرحمة تغسله وأن روحاً جديدة تتخلل إلى جسده، فبكى وسالت دموعه من عينه التي كانت لا تعرف الدموع.. وأعلن

(١) مغازى الواقدى والسيرة لابن هشام ودلائل النبوة للبيهقى.

إنه سيمكث بين يدي النبي ﷺ ولن يعود إلى ما كان عليه من ظلم.. ولن يرجع إلى الأرض التي كان يعيش فيها على قطع الطريق؛ وقد وجد طريقا جديدا نحو السماء.. فكبر المسلمون.

طلعت أفواه بنى عامر وعصابته يرددون الشهادتين وقد آمنوا بالله ورسوله بعد أن غزا النور المحمدي قلوبهم.

فكاد عامر أن ينفجر غيظا وحقدا، بعد أن رأى قومه وأتباعه قد تفلتوا من بين يديه، وها هو ذا جبار وزيره ورفيقه في الفساد يتركه ويلحق بركب النبي.

فذهب عامر يساوم النبي ﷺ، وقد ظن أن الأمر ملك دنيا، وغنائم توزع.

فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟.

فقال النبي ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم».

فقال عامر: أتجعل لي الأمر من بعدك إن أسلمت فأكون خليفتك؟.

فأجابه النبي ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك».

فقال عامر: أسلم على أن لي الوبر - يعني ملك الصحراء ولك المدر -

يعنى ملك المدينة؟.

فأجابه النبي ﷺ: «لا».

فقام عامر بن الطفيل من بين يدي النبي وهو أشد غضبا وحقدا،

واختلى بتابعه أربد وقال له.

يا أربد إنني سأشغل عنك وجه محمد بالحديث، فإذا رأيتني فعلت

ذلك فاضربه بالسيف.

فقال أريد: أفعَل، واتفقا على ذلك، فأقبلا راجعين إلى النبي مرة ثانية.

فقال عامر للنبي ﷺ: يا محمد خالني.

فقال النبي ﷺ: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده».

فكرر عامر كلامه قائلاً: يا محمد خالني.

فأجابه النبي ﷺ «لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له».

وأخذ عامر يكرر هذا الكلام على النبي ﷺ وينتظر من أريد ما كان أمره به، فوجد أن أريد لا يفعل شيئاً، فلما رأى عامر أن أريد لا يتحرك خطوة من مكانه وأن ما دبره قد فشل، قال للنبي ﷺ في غضب.
أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، ولأربطن بكل نخلة فرساً، ولأغزونك بألف فارس.

فقال النبي ﷺ: «يمنعك الله، اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت».

فلما ولي عامر وخرجوا من عند النبي ﷺ قال عامر بن الطفيل لتابعه أريد: أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخاف منه إلا أنت، ولا أخافك بعد اليوم أبداً.. فقال له أريد: تعست لا أبالك، لا تعجل علي، والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا رأيتك دخلت بيني وبين الرجل، حتى إنني لا أراه وما أرى غيرك، أقأضربك بالسيف؟. وأنزل الله على نبيه في الكتاب يخبره بهذا الحفظ الإلهي...

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّن أَمْرِ اللَّهِ﴾ الرعد - ١١

ثم خرج وفد بنى عامر من المدينة راجعين إلى بلادهم، وبينما هم فى الطريق نزل عامر بن الطفيل عند امرأة من بنى سلول فبات عندها، وكانت بنو سلول أحسن العرب وأحقرها.. فأرسل الله على عامر الطاعون فى رقبته، فظهرت غدة فى عنقه فخنقته، فلم يستطع البلع ولا التنفس بسببها أياما حتى شعر بأنه سيموت منها.. فأخذ يقول متحسرا وهو يتحسس هذه الغدة فى عنقه: غدة كغدة الإبل، وموت فى بيت سلولية، أهذه نهايتك يا عامر.. فشعر بالعار أن يموت هذه الميتة الحقيرة وهو من فرسان العرب وأقواهم.. فأحضر فرسه وتحامل على نفسه حتى ركبته، كى يموت عليه. ولا تقول عنه العرب أنه مات فى فراشه كالعجائز والجبناء.. فمضى به فرسه وهو مترنحا فوقه فلم يتمالك توازنه حتى سقط من عليه ميتا^(١).

وهكذا انتهى اسم عامر بن الطفيل بأحسن مودة وأسوأ خاتمة وبقي جبار السلمى عندما يذكر تنطق الأفواه قائلة.. رضى الله عنه.

(١) مغازى الواقدي والسيرة لابن هشام ودلائل النبوة للبيهقي والبداية والنهاية لابن كثير.

القصة الخامسة عشرة

جابر رضي الله عنه والبركة المحمدية في الجمل والتمر والنمارق

بينما المسلمون يكملون مسيرهم راجعين نحو المدينة من إحدى الغزوات.. لاحظ النبي ﷺ أن جابرا قد تأخر عن الركب بسبب ضعف جملة وبطنه حتى إنه كان يساوم الصحابة على بيعه.. فلم يكن أمامه سوى أن يبيعه أو أن يأخذ ما عليه من ماء وزاد ويتركه وجبة دسمة للذئب ووحوش البرية.. فتخلف النبي ﷺ عنهم حتى لحق به جابر فقال له النبي ﷺ: «مالك يا جابر؟ فأجابه جابر: يارسول الله أبطأ بى جملى هذا، فهو عليل.

فأناخه النبي ﷺ ثم تناول إناء فيه ماء ونفت فيه ثم رش منه بيده على رأس الجمل وظهره، وأخذ النبي ﷺ عصا صغيرة كانت مع جابر فنخس بها الجمل نخسة خفيفة ثم قال لجابر: «ارْكَبْ يَا جَابِرُ».

فما أن ركب جابر حتى انطلق الجمل بقوة مسرعا، لدرجة أن جابر كان يريد أن يمسك بخطامه فلا يقدر عليه.. وصار يجرى بين يدي الإبل حتى أنه قدامها يسير.. فنادى النبي ﷺ جابر قائلا: «كيف ترى بعيرك؟». فقال جابر: بخير قد أصابته بركتك^(١).

(١) مسلم في صحيحه والبخارى عن أبي نعيم والبيهقي في الدلائل والسيرة لابن هشام والمغازي للواقدي.

ثم راح النبي ﷺ يخاطب جابرا مباسطا إياه فقال له.. «أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟.

فأجابه قائلا: بل أهبه لك يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ.. «لا ولكن بعنيه غفر الله لك».

فابتهج جابر من أجل هذا البسط الذي وجده في الحوار مع النبي ﷺ فقال له: فسمنيه يا رسول الله - يعنى ساومنى على ثمنه - فقال له النبي ﷺ «قد أخذته بدرهم».. فقال جابر وقد غلبت عليه روح الدعابة. لا إذن تغبننى يا رسول الله.

فقال النبي «فبدرهمين»؟.

فقال جابر: لا.

وقد شعر جابر بأن جملة قد أصبح سلعة مرغوب فيها بعد أن مسها النبي بيده وبركته، فراح يتمادى في الدعابة مع نبيه ﷺ ويعتز ويزهو بجملة ويطلب من النبي ﷺ الزيادة في هذه الصفقة التي بسطت له الأنس والضحك في الكلام مع النبي ﷺ حتى قيل إن النبي زاده خمسا وعشرين مرة وفي كل مرة يقول له: «غفر الله لك».. وجابر يرفض كي يستزيد من استغفار رسول الله ﷺ والاستئناس بالحوار معه، فكان جابر يقول: استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسا وعشرين مرة.

حتى بلغ النبي ﷺ في الزيادة إلى أوقية فقال له النبي.

«أفقد رَضِيت»؟.

فأجابه: هُوَ لَكَ يا رسول الله.

وهم جابر أن ينزل من عليه، لكن النبي ﷺ قال له:
«فَظْهَرُهُ لَكَ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ».

ولما لاحت لهم معالم المدينة قال النبي ﷺ له: «يا جابر هل تزوجت بعد؟» فأجابته: نعم يا رسول الله.
فسأله النبي ﷺ: «بِكْرًا أَمْ ثَيْبًا؟»
فأجابته: بل ثَيْبًا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ».
فقال جابر: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ، إِنَّ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ. فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن.. ولكن أردت امرأة تقوم عليهن وتمشطهن، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَلُمُ شَعَثَهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ.

فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك»، «أصبت، ونعم ما رأيت»،
«إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك».. «إِنَّا لَوُ قَدِمْنَا صِرَارًا وَهُوَ مَوْضِعٌ عَلَى مَدَاخِلِ الْمَدِينَةِ أَمَرْنَا بِجَزُورٍ - نَاقَةٍ فَنُحِرَتْ وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعْتُ بِنَا فَنَفَضْتُ نَمَارِقَهَا».
وقد أراد النبي ﷺ بذلك أن يدخل السرور على قلب جابر فيصنع له وليمة لأنه لم يكن له وليمة في عرسه وحتى تسمع زوجته بقدمه فتستعد للقاءه وتفرش له النمارق فقال جابر: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا نَمَارِقُ وَالنَمَارِقُ هِيَ الْوَسَائِدُ الْمُرْتَفَعَةُ النَّاعِمَةُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ نَمَارِقُ فَإِذَا قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيْسًا».

فلما وصلوا إلى صرار أمر النبي فنحروا ناقه وأقاموا هناك وأقبلت الصحابة تهني جابرا بزواجه.. ولما ذهبوا ليدخلوا المدينة قال لهم النبي ﷺ: «امهلوا حتى تدخلوا ليلاً أى عشاء لكى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة».

ومضى جابر إلى زوجته فأخبرها بما دار بينه وبين رسول الله ﷺ وقال لها: قَدْ أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا كَيْسًا، فَقَالَتْ: سَمِعًا وَطَاعَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَافْعَلْ.

فلما أصبح جابر أخذ جملة وذهب به إلى النبي ﷺ فأناخه وربطه على باب حجرته، وجلس جابر ينتظر خروج النبي ﷺ.. فلما خرج النبي ﷺ ورأى الجمل على بابه قال: «ما هذا؟».

فقالوا: إنه جمل أتى به جابر يارَسُولَ اللَّهِ.

فدعا النبي ﷺ بلالا وقال له: «اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَةً».

ثم قال لجابر ممازحا فى كلمات بالغة الرقة.. «أتراى ماكستك؟ ما كنت لآخذ جملك»، «يا بن أخى خذ برأس جملك فهو لك».

فرجع جابر ومعه جملة ومعه أيضا أوقية من المال ثمن الجمل، وكان فى هذا المال الذى قبضه جابر من النبي بركة ملأت داره، ولكن النبي ﷺ لم ينقطع عطاؤه لجابر عند هذا الحد، فقد كان يعرف أنه شاب فى مقتبل حياته يعول تسعة من أخواته اللوات الأيتام وقد تركهم أبوهم ورحل عن الدنيا شهيدا فى سبيل الله، وكان النبي ﷺ حريصا على أصحابه، عزيزا عليه ما يتعبهم، رؤوفا رحيفا بهم.

فكان يسأل عن جابر ويتحرى أخباره، وعرف النبي ﷺ أن أبا جابر قد استشهد وعليه دين كبير وقد ورث جابر ابنه هذا الدين ولا يملك من الدنيا إلا قليل من النخيل.. فسأله النبي ﷺ قائلا: «يَا جَابِرُ مَا فَعَلَ دَيْنُ أَبِيكَ؟». فقال جابر: قد علمت يارسول الله أن والدي استشهد يوم أحد، وقد ترك عليه دينا كثيرا، فأنا أحب أن يراك الغرماء.

فقال له النبي ﷺ: «مَنْ صَاحِبُ دَيْنِ أَبِيكَ؟».

فأجابه: أَبُو الشَّحْمِ الْيَهُودِيَّ، لَهُ عَلَى أَبِي ثَلَاثُونَ وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ. فذهب النبي ﷺ إلى اليهودى صاحب الدين وطلب منه المهلة لجابر حتى تكتمل ثمار نخيله فيجذها ويقضى دينه فقال له: «انظر جابرا» ولكن اليهودى رفض وقال: لا يا أبا القاسم.

فلما رفض اليهودى إعطاء مهلة ليستوفى دينه، أمر النبي ﷺ جابر أن يجذ ثمار نخيله فقال له.. «يَا جَابِرُ، فَإِذَا جَذَدْتَهَا فَاعْزِلِ الْعَجْوَةَ عَلَى حِدَّتِهَا، وَالْوَانَ التَّمْرِ عَلَى حِدَّتِهَا»، «أذهب فيبدر كل تمر على ناحية» يعنى ضع كل نوع من التمر فى بيدرة وهو الجرن الخاص به الذى تجمع فيه الثمار.

ثم ذهب النبي ﷺ إلى أرض جابر فمشى فيها، ثم طاف حول أعظمها بيدرا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، وقال لجابر: «أدع غريمك»، فجاء أبو الشَّحْمِ الْيَهُودِيَّ ومعه عماله، فقال النبي ﷺ: «يا جابر جذ له فأوفه الذى له» ثم قال النبي ﷺ لجابر: «أين عريشك يا جابر؟» فأخبره بموضعه فقال له النبي ﷺ: «افرش لى فيه».. فكنسه جابر وفرشه فدخل النبي ﷺ العريش فرقد ينام فيه.. وراح جابر يكييل لهم وهو قلق

يخاف ألا يكفي التمر سداد دينه وعمال أبي الشحم يحملون التمر على ظهورهم، فشاهد أمرا عجباً أن التمر يربو ويزيد ولا ينقص حتى وفي دين اليهودى كله، فقال جابر متعجباً: ما زلت أكيل لهم حتى أدى الله أمانة والدى.. وأنا والله راض أن أدى الله أمانة والدى وإن لم أرجع لإخوتى بتمرة.. فسلم الله البيادر كلها.. حتى كأنى أنظر إلى البيدر الذى عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص منه تمرة واحدة.

فذهب جابر إلى النبى ﷺ فى العريش وهو مسرور يريد أن يخبره بما حدث فوجد النبى ﷺ قائماً يصلى العصر، فلما انصرف النبى من صلاته، أخبره جابر أنه قد قضى دينه وأخبره بالفضل الذى فضل له من البركة.. فقال النبى ﷺ: «أشهد أنى رسول الله».. ثم قال لجابر: «أخبر بذلك ابن الخطاب».. فذهب جابر إلى عمر بن الخطاب فأخبره بما حدث.

فقال عمر: لقد علمت حيث مشى فيها رسول الله ﷺ ليباركن الله فيها. ونمى الله لجابر فى البركة فى هذه الثمار فريح ريحا كثيراً، وأوسع على إخوته وبيته.. حتى مرت الأيام والسنون ونزلت زوجته إلى السوق فوجدت نمارق من بلاد الفرس فاشتريت زوجته النمارق وفرشت بها الدار حتى إنها ملأت بها أركان البيت.. فكان جابر يراها ويتذكر حال النبى ﷺ الذى كان ينام على الليف الخشن حتى يؤثر فى جنبه الشريف، ثم يتذكر كلمة رسول الله له يوم نجد فيتبسم وهو يقول لها: أميطى عنا نمارقك، ما أحب أن أتكأ عليها، فتقول له زوجته: أما تذكر أن الرسول ﷺ قال إنه ستكون لكم نمارق^(١).

(١) السيرة لابن هشام والمغازى للواقدي ومسلم فى صحيحه والبخارى عن أبى نعيم والبيهقى فى الدلائل وأحمد فى مسنده.

القصة السادسة عشرة

جابر رضي الله عنه يطعم جيشا كاملا بمعجزة نبوية

كان جابر بجانب النبي صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق ينظر إليه ويسمع كلامه . أحس في صوت النبي بالضعف وعرف في وجهه أثر الجوع .. فحزن جابر وهو يرى النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة من التعب والجوع والغبار يغطي بدنه الشريف .. وهو يعمل بيده الشريفة مع أصحابه في الحفر فيحمل التراب والحجارة ويضرب في الصخر بالمعول .

فأراد جابر الذهاب إلى بيته فاستأذن النبي في الانصراف قائلاً :
 ائذن لي يا رسول الله الذهاب إلى المنزل .. فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم .. فأسرع جابر إلى امرأته يقول لها: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما لي عليه صبر .. فسألته : ما به بأبي وأمي رسول الله؟

فأجابها: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصاً - جوعاً - شديداً ، أفعدك شيء؟
 فقالت له: عندي صاع من شعير وعناق - يعني ماعز صغير .. فادع رسول الله ورجلا أو رجلين ولا تفضحني برسول الله وبمن معه كلهم .. ثم ذبحوا العناق وطحنت صاع الشعير وجعلت اللحم في البرمة على النار .
 وذهب جابر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهمس في أذنه قائلاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ صَنَعْتُ لَكَ طُعِيمًا فقم أنت ورجلين من أصحابك .. فسأله النبي صلى الله عليه وسلم «وكم هو»؟ فأجاب جابر: صاع من شعير وعناق .. فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يقول

للمسلمين جميعا: «يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سؤارا - يعنى ضيافة - فحيهلا بكم - سيروا مسرعين».

فقام الناس جميعا يمشون نحو بيته ونهض النبي ﷺ وهو يشبك أصابعه بأصابع جابر حتى قام.. ومشى النبي ﷺ أمام الجيش ويده فى يد جابر والجيش يمشى خلفهم.. وقد استولى على جابر من الحياء الشديد ما لا يعلمه إلا الله وهو يقول فى نفسه: جاء النبي ﷺ بالخلق على صاع شعير وعناق، والله إنها لفضيحة.

فإذا بالنبي ﷺ يقول له «كثير طيب.. لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء».

فدخل جابر قبلهم مسرعا على زوجته وهو يقول لها فى فزع: افتضحت، جاءك رسول الله بالجند، بالأنصار والمهاجرين.. فقالت له: أنت دَعَوْتَهُمْ أَوْ هُوَ دَعَاَهُمْ؟

فأجابها: بَلْ هُوَ دَعَاَهُمْ.

فَقَالَتْ لَهُ: إِذَا دَعَهُمْ فَهُوَ أَعْلَمُ.

فكشفت عنه بكلماتها شيئا مما يعانيه من الغم ومخافة الحرج.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه أن يكونوا جماعات، وأن يدخلوا عشرة عشرة، وقال لهم: «ادخلوا ولا تضاغظوا».. ودخل النبي ﷺ قبلهم وطلب من جابر أن يصطحبه إلى المكان الذى يطهون فيه الطعام.

فدخل فوجد البرمة على النار فوق الأثافي واللحم قد قارب على النضج. ووجد العجين يختمر.. فقدموا له العجين فنفت فيه النبي وبارك. ثم ذهب إلى البرمة التى فيها اللحم فنفت فيها وبارك.. ثم قال لهم: «اغْرِفُوا وَغَطُّوا الْبُرْمَةَ، وَأَخْرِجُوا مِنَ التَّنَوْرِ الْخُبْزَ ثُمَّ غَطُّوهُ».

ثم راح النبي يغرف لهم بيده فراح يثرد الخبز ويغرف اللحم ثم يخمر هذا ويخمر هذا - يعنى يغطيهم ولا يكشف الغطاء.. وراحوا يقربون الطعام للناس فتأكل العشرة ثم تنصرف وتأكل عشرة أخرى.. حتى شبع الجيش كله وكان عددهم ثلاثة آلاف.. وكانوا كلما غرفوا من الطعام يعود التنور والقدر أملاً مما كانا.

ثم قال النبي ﷺ لزوجة جابر «كلى وأهدى».. فأكلوا وظلوا طوال اليوم يهدون منها جيرانهم. والبرمة تفور باللحم كما هي لا تنقص شيئاً.. والخبز يخرج من التنور لا ينقص شيئاً.. وراحت الصحابة ينشدون من فرحهم بهذه الآية قائلين.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

فكان النبي ﷺ يرد عليهم مع الجموع التي تنشد قائلة.

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة^(١)

(١) البخارى ومسلم والنسائى ومغازى الواقدى ودلائل النبوة.

القصة السابعة عشرة

حذيفة رضي الله عنه ينام في شملة النبي صلى الله عليه وسلم

ويصبح صاحب السر

كانت رياح الصبا رياح خفيفة تهب على الوادي محملة بأريج الأزخر وعطر الزهور الجبلية فتتعش الأرواح.. ولكنها في هذه المرة جاءت ريحا عاتية قوية فصارت تعصف بكل شيء.. وتنقل كثبان الرمال.. وتقتلع الأوتاد وتهدم البنيان.. ولا يعرف فعل الريح في الجبل إلا أهل الجبل. لم تكن جيوش الوثنيين التي تحاصر المدينة وقتها تتوقع أنها ستحارب طواحين الهواء وأن من سيتصدى لهم ويهزمهم هواء.. نعم مجرد هواء.. فبينما كانت هذه الأحزاب الضخمة تقف عاجزة أمام هذا الخندق الممدود أمامهم ويفكرون في حيلة لعبوره إذ هبت عليهم عاصفة تخلع الخيام وتطفئ النيران وتكفي قدور الطعام، وتأخذ بالرجل وجمله فتطيح بهم وتلقيهم بعيدا حيث الرمال الناعمة التي تقذفها الريح فتدفنهم بها أحياء. وارتفع صوت الريح ودوى هزيمها وصفيرها يغزو سكون الليل.. فكانت لها أصوات كأمثال الصواعق.. فكبر المسلمون عند ذلك وعرفوا أنها الآية التي بشرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووقف ابن عباس يقول: جَاءَتِ الْجَنُوبُ إِلَى الشَّمَالِ، فَقَالَتْ: انْطَلِقِي بِنَصْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَتْ الشَّمَالُ: إِنَّ الْحُرَّةَ لَا تَسْرِي بِلَيْلٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ

عَزَّ وَجَلَّ الصَّبَا، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَ فَسَاطِيطِهِمْ.. وَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَبْشِرًا: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكْتُ عَادُ بِالذَّبُورِ».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الأحزاب - ٩

إنها ريح شديدة الظلمة بحيث لا يرى الشخص إصبعه إذا مدها.. إنها ريح جعلتهم عميان لا يبصرون.. إنما يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.. إنها ريح لا يثبت لها شجر ولا وبر.. ومن يخرج رأسه من جحره فقد خاطر بروحه.

وكان العجيب أن معسكر المسلمين لم يكن به من هذه الريح سوى الصقيع الشديد فقط.. وهم يسمعون دويها تعصف بمعسكر العدو على الجانب الآخر من الخندق.

وبينما هم في ذلك الوقت كامنون في معسكرهم يستدفئون بالنار، أراد النبي أن يبعث رجلا من أصحابه فيتسلل حتى يأتي معسكر العدو فيأتيه بخبرهم.. فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع»؟ فوجم القوم جميعا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ويكون معي يوم القيامة»؟.. فوجم القوم ولم يتكلموا.. فقال النبي ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ.. جَعَلَهُ اللَّهُ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»؟. ولم يكن الصحابة الذين يجاهدون مع النبي ﷺ بأرواحهم ويفقدونه بحياتهم ليجبنوا عنه في هذه اللحظة.. وإنما شعورهم بأن النصر بات وشيكا خاصة بعد شهودهم آية الريح، جعل ذلك كل واحد منهم يتمنى البقاء حتى يشاهد بعينه فرحة النصر مع النبي ﷺ بهذه الآية.

وكانت تلبية هذا الطلب بمثابة الموت المحقق الذى لا شك فيه.. فالخارج سيلقى بنفسه فى هذا الصقيع الذى يجمد الدم فى العروق، وإن نجا من الصقيع فكيف ينجو من هذه الريح التى تخلع الشجر وتطيح بالكثبان، وإن نجا من الريح فكيف ينجو من جيوش العدو التى ستفتك به إن تفتنوا له.. كانت كل هذه الخواطر تجول فى الرءوس، وخاصة حذيفة بن اليمان الذى ترددت فى صدره هذه الخواطر وقتها، فكانت داعية الإيمان بداخله تدعوه أن يلبي نداء النبى ﷺ ثم يثنيه الطبع البشرى لخوفه أن يمثل الوثنيون بجسده.

فتمنى أن يستجيب لرغبة النبى ﷺ وفى نفس الوقت يفوز بدعوة من النبى ﷺ أن يرجع سالماً، وبينما هو مستغرق فى هذه الأفكار، إذا به يفيق على صوت النبى ﷺ وهو يقول «يا حذيفة».. وكان حذيفة يحكى هذا المشهد فيقول: قال النبى ﷺ ذلك ثلاثاً فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد.. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أنه لا يقوم أحد، دعاني، فقال: «يا حذيفة»، فتقاصرت بالأرض، ولم أجد بداً من القيام حين فؤد باسمي، فجثته ولقبي وجبان في صدري. فقال لى النبى ﷺ: «تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم»؟.

فقلت: لا. والأذى بعثك بالحق، ما قدرت على ما بى من الجوع والبرد والخوف.

فقال النبى ﷺ: «أذهب فأنظر ما فعل القوم ولا ترمين بسهم ولا بحجر ولا تطعن برمح ولا تضربن بسيف حتى ترجع إلي».

فقلت: يا رسول الله ما بى خوف أن يقتلوني ولكنى أخاف أن يمثلوا بى، فقال لى رسول الله ﷺ: «ليس عليك بأس».

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ عَلَيَّ مَعَ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَوَّلِ.

فقلت: لكنى أخشى أن أوسر يارسول الله - يعنى يقع أسيرا.

فقال رسول الله ﷺ: «إنك لن تؤسر».

فقلت: والذى بعثك بالحق ما منعى أن أقوم إلا حياء منك من البرد.

فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلى».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اذهب، حفظك الله من أمامك، ومن خلفك،

وعن يمينك، وعن شمالك، حتى ترجع إلينا».

فمضيت كأنى أمشى فى حمام - يعنى حميما مثل الهواء الحار.

فَدَخَلْتُ عَسْكَرَهُمْ فَإِذَا هُمْ يَصْطَلُونَ عَلَى نِيرَانِهِمْ وَإِنَّ الرِّيحَ تَفْعَلُ

بِهِمْ مَا تَفْعَلُ، لَا تُقَرِّ لَّهُمْ قَرَارًا، وَلَا يَثِبُ لَهُمْ بِنَاءً، فَأَقْبَلْتُ فَجَلَسْتُ

عَلَى نَارٍ مَعَ قَوْمٍ مِنْهُمْ. فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: احذَرُوا الْجَوَاسِيْسَ

وَالْعَيُونَ، وَلْيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ جَلِيْسَهُ. فبادرت وأخذت بيد جليسى على

يمينى وقلت له:

من أنت؟

فقال: معاوية بن أبى سفيان.

ثم أخذت بيد جليسى على يسارى فقلت: من أنت؟

فقال: عمرو بن العاص.

فعلت ذلك خشية أن ينتبهوا إلى.. فسمعت أبا سفيان يقول: يامعشر

قريش والله إنكم أصبحتم لستم بدار قرار.. وَلَقَدْ هَلَكَ الْخُفَّ وَالْكَرَاعُ..

وغدرت بنا بنو قريظة.. وقد لقينا من هذه الريح ما ترون، فَمَا يَثْبُتُ لَنَا

بِنَاءٍ وَلَا تَطْمَئِنَّ لَنَا قَدْرٌ فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، وَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَجَلَسَ عَلَيَّ بِعَيْرِهِ فَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيَّ حِينَ بَعَثَنِي إِلَّا أَحَدِثَ شَيْئًا، لَقَتَلْتَهُ بِسَهْمٍ.

ثم دخلت العسكر فإذا الناس في عسكرهم يقولون.. الرحيل الرحيل.. لا مقام لكم.. والريح تقلبهم على أمتعتهم، وتضربهم بالحجارة، والريح مع ذلك لا تجاوز عسكرهم.

فلما انتصفت الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارسا معممين، فخرج إلى فارسان منهم وقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه القوم.. ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، فضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وعاودني البرد، فجعلت أقرقف - لأن النبي ﷺ قال: لا بأس عليك من برد حتى ترجع إلى فأوماً إلى رسول الله ﷺ بيده، فدنوت منه. فسدل على من فضل شملته، فنمت ولم أزل نائماً حتى الصباح. فلما أصبحت، قال لي رسول الله ﷺ: «قم يانومان».. يعني ياكثير النوم.. واصطفى النبي ﷺ حذيفة وخصه بعلوم من الأسرار، حتى أصبح يقال له.. صاحب سر رسول الله.. فكان يعلم علم المنافقين حتى أسماءهم ويعلم علوم الفتن ونبوءات آخر الزمان وغير ذلك وكان يقول: لقد حدثني رسول الله ﷺ بما كان وبما يكون حتى تقوم الساعة^(١).

(١) مغازي الواقدي وأسد الغابة والسيرة لابن هشام والسيرة الحلبية

القصة الثامنة عشرة

ثعلبة رضي الله عنه شهيد التوبة

يروى أنه كان هناك فتى من الأنصار يقال له ثعلبة بن عبد الرحمن.. كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ويلزمه، ويبعثه في حاجته، فمر الفتى في يوم بباب رجل من الأنصار، فرأى امرأة عارية تتغتسل، فكرر النظر إليها، ثم انصرف وخاف أن ينزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم فيما صنع، وتعاضم على قلبه كيف يكون في مجلس النبي وأصحابه الأبرار وقد صنع ذنبا كهذا.

فرأى أنه أحقر من ذلك، وحدثته نفسه ألا يدنس مجلس الأطهار بحضوره.. فخرج هاربا على وجهه، فأتى جبالا بين مكة والمدينة فدخلها.

ومكث فيها زمانا يتوب ويبكى، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم أربعين يوما.. ثم إن الملك جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك إن الهارب من أمتك بين هذه الجبال يتعوذ بي من نارٍ. فدعا النبي عمر وسلمان، وقال لهما: «يا عمر ويا سلمان.. انطلقا فائتيا نى بثعلبة بن عبد الرحمن» وعين لهما مكانه.

فخرجا في أنقاب المدينة، فلقىهما راع من رعاء الشاة بين الجبال يقال له: ذفافة. فقال له عمر: يا ذفافة، هل لك علم بشاب بين هذه الجبال؟

فقال له ذفافة: لعلك تريد الهارب من جهنم؟.

فقال له عمر: وما علمك أنه هارب من جهنم؟.

قال: لأنه إذا كان جوف الليل خرج علينا من هذه الجبال واضعا يده على رأسه وهو يقول: يا ليتك قبضت روحي في الأرواح، وجسدى في الأجساد. ولم تجردنى في فصل القضاء.
فقال عمر: إياه نريد.

فانطلق بهم الراعى إليه، فلما كان في جوف الليل خرج عليهم من بين تلك الجبال واضعا يده على رأسه وهو يقول: يا ليتك قبضت روحي في الأرواح، وجسدى في الأجساد، ولم تجردنى لفصل القضاء.. فعدا عليه عمر فاحتضنه، فقال ثعلبة: الأمان، الخلاص من النار.

فقال له عمر: يا أخى أنا عمر بن الخطاب..

فقال ثعلبة: يا عمر، هل علم رسول الله ﷺ بذنبى؟.

قال عمر: لا علم لى، إلا أنه ذكرك بالأمس.

فبكى الفتى وقال: يا عمر، لا تدخلنى عليه إلا وهو يصلى، وبلال يقول قد قامت الصلاة.

فأقبلا به حتى دخلوا إلى المدينة، فوافقوا النبى وهو فى صلاة الغداة، فاصطفوا فى الصف، فما سمع ثعلبة قراءة النبى ﷺ حتى خر مغشيا عليه وأحس أن الآيات تخاطبه وتكاد تنطق باسمه، فلما سلم النبى ﷺ وانصرف من صلاته قال: «يا عمر ويا سلمان ما فعل ثعلبة بن عبد الرحمن؟».

فقالا: هو ذا يا رسول الله.

فقام النبي ﷺ قائماً وهو ينادى قائلاً «ثعلبة».
 فقال: لبيك يا رسول الله.
 فنظر إليه النبي ﷺ وقال له: «ما غيَّبك عني»؟.
 فقال ثعلبة: غيَّبني عنك الذنب يا رسول الله.
 فقال له النبي ﷺ: «أفلا أدلك على آية تكفر الذنوب والخطايا».
 قال: بلى يا رسول الله.
 قال النبي: «قل: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».
 فقال ثعلبة: ذنبي أعظم يا رسول الله.
 فقال له النبي ﷺ: «بل كلام الله أعظم يا ثعلبة».. ثم أمره النبي ﷺ بالانصراف إلى منزله.
 فمرض ثمانية أيام. فجاء سلمان إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هل لك في ثعلبة نأته نزوره لما به؟ فقال لهم النبي ﷺ: «قوموا بنا إليه». فلما دخل عليه أخذ النبي ﷺ رأسه فوضعه في حجره. فاستحى ثعلبة أن تكون رأسه في حجر النبي الشريف.. فأزال رأسه عن حجر النبي ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «لم أزلت رأسك عن حجري»؟.
 فأجابه ثعلبة: إنه من الذنوب ملآن يا رسول الله.
 فقال النبي ﷺ: «ما تجد»؟.
 قال: أجد مثل ديبب النمل بين جلدي وعظمي.
 فقال له النبي ﷺ: «فما تشتهي»؟.
 قال ثعلبة: مغفرة ربي.

فنزل جبريل وقتها على النبي ﷺ فقال له: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: لو أن عبدى هذا لقينى بقراب الأرض خطيئة لقيته بقرابها مغفرة.

فقال النبي ﷺ للملك جبريل: «أفلا أعلمه ذلك؟» فأجابه الملك: بلى.. فأعلمه النبي ﷺ بذلك. فصاح ثعلبة صيحة فمات.. فأمر النبي ﷺ بغسله وكفنه وصلى عليه، فجعل النبي ﷺ يمشى على أطراف أنامله فى جنازته، فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تمشى على أطراف أناملك؟.

فقال النبي ﷺ «والذى بعثنى بالحق نبيا، ما قدرت أن أضع رجلى على الأرض من كثرة أجنحة من نزل لتشييعه من الملائكة»^(١). وكان النبي ﷺ يقول لهم: «رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّةَ». فقالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟.

فقال النبي ﷺ: «لا يزال تائباً فإرا منه، خائفاً من ربه حتى يموت فيدخله الله الجنة»^(٢).

«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك، العجب العجب»^(٣).

(١) رواه أبو نعيم فى «حلية الأولياء» وفى «معرفة الصحابة» ورواه الخرائطى فى «اعتلال القلوب». ومن طريقه ابن قدامة فى «التوابين» ورواه أبو عبد الرحمن السلمى فى «طبقات الصوفية». وابن مندة مختصراً كما فى «الإصابة» لابن حجر.

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لأحمد بن حنبل والمعجم للطبرانى.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوى وأخرجه البزار، والديلمى.

«والذى نفسى بيده لو لم تذنبا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم»^(١).. «وإذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب»^(٢)..
 «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ..
 وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»^(٣).. «الندم توبة.. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٤).

(١) البخارى ومسلم.

(٢) الديلمى عن أنس وابن أبى الدنيا.

(٣) البخارى كتاب الدعوات، باب التوبة ومراقبة المفاتيح.

(٤) ابن ماجه، والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى الشعب وأبو نعيم فى الحلية.

القصة التاسعة عشرة

ماذا فعل أبو الهيثم رضي الله عنه عندما وجد النبي صلى الله عليه وسلم في بيته؟

كان النبي صلى الله عليه وسلم زاهدا في حياته وفي بيته، يربي أصحابه على التواضع والخشوع وليس على الترف والتعالى.. كان ملكا حاكما ولكنه يعيش كعبد مسكين، متواضعا حتى كأنه واحد مثل بقية أصحابه، لا تميزه من بينهم لولا نور النبوة يلوح على وجهه والجلالة تنطق من نواحيه. في يوم من أيام زمانه في المدينة كان صاحبه أبو بكر يتألم من شدة الجوع ولم يجد عند زوجته في بيته ما يأكله.. فخرج أبو بكر من بيته إلى الطريق يمشى في مناكب الوادى لعل الله أن يرزقه أو يجد ما ينسيه الجوع حتى ينقضى يومه.. فلم يعض وقت يسير إلا وأبو بكر يشاهد عمر مقبلا عليه.. فسأله أبو بكر: ما الذى أخرجك من بيتك في هذه الساعة يا عمر؟

فأجابه عمر: والله ما أخرجنى إلا الجوع.

ومضى الاثنان فى طريقهما تملأهما روح من السعادة والدهشة أن تلاقيا الاثنان على نفس الأمر ذاته.. وأن الله قد زوى عنهما الدنيا ومتاعها وسلك بهما فى طريق الأنبياء والصديقين الذين لا يهتمون لما يأكلون أو يلبسون.

وبينما هما كذلك إذا بهما يلحان هيئة شخص مقبل عليهما من بعيد.. فحدقوا النظر نحوه وما أن اقترب هذا الإنسان منهم فإذا بهم يجدونه رسول الله ﷺ.. فأقبل الاثنان نحوه في فرح باللقاء وهما يسألانه: بأبينا أنت وأمنا يارسول الله، ما أخرجك من بيتك في هذه الساعة؟ فأجابهما النبي ﷺ بما لم يكن يخطر في بالهما أو يتوقعانه، فقال لهما: «ما أخرجني إلا الذي أخرجكما» يعني الجوع.

ومضى بهما النبي ﷺ يمشون سويا في الوادي الرحيب.. يهتز حولهم سعف النخيل، وتهب عليهم رياح الصبا فتحمل في طياتها أريج عشب الأذخر.. فما أن تتمسح بنسائمها على جسد النبي حتى تمتلئ من طيبه العطر فتدخل في صدورهم فتملأها بالإيمان والروح، وتغسلها من درن الهموم والأحزان.. وكان النبي يعلمهم قائلا.. «من كان رزقه على الله فلا يحزن».. «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماسا وتروح بطانا»^(١).

«لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله»^(٢).

حتى وصلوا إلى منزل أبي الهيثم الأنصاري فإذا به ليس في البيت.. فخرجت لهم زوجته ورحبت بهم قائلة: مرحبا بنبي الله ومن ومعه. فسألها النبي ﷺ: «أين زوجك؟». فقالت: يأتيك يانبي الله الساعة، لقد انطلق يستعذب لنا الماء.

(١) الترمذى وأحمد بن حنبل في مسنده.

(٢) ابن ماجه و أبى داود وكتاب الترمذى.

وكان الأنصارى فى بستان نخيل له يصلحه ويجنى ثمره فرأى النبى ﷺ، فأقبل مسرعا من بستانه حتى وصل إلى النبى ﷺ فراح يعانقه ويستفديه قائلا: فداك أبى وأمى يارسول الله، مَرَحَبًا وَأَهْلًا، مَا زَارَ النَّاسَ قَطُّ مِثْلَ مَا زَارْنَا اللَّيْلَةَ، الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى.. وكان سعيدا جدا أن زاره النبى ﷺ وأصحابه.

ثم بسط لهم حصيرا فأجلسهم عليه وأحضر لهم عذقا من تمر وعذقا من بسر وعذقا من رطب.. فقال له النبى ﷺ: «هلا ما اجتنيت» يعنى كان يكفى ما اجتنيت فقط من الثمر وهو الرطب.

فقال له الأنصارى: أحببت يارسول الله أن تأكلوا من بسره وتمره ورطبه.. ثم أخذ سكيننا وقام ليذبح لهم من أغنامه، فقال له النبى ﷺ: «اذبح ولكن نكب عن الدر» يعنى ابتعد عن التى تدر اللين - حتى لا يذبح حلوبا ترضع صغارها أو تسقى البيت من لبنها.. فذبح لهم جديا وطبخ نصفه وشوى نصفه ثم وضعه بين أيديهم وقال: أحببت يارسول الله أن تأكل منه مشويا ومطبوخا.. فلما وضع بين يدي النبى ﷺ أخذ من الجدى فجعله فى رغييف وقال له: «أبلغ بهذا فاطمة فإنها لم تصب مثل هذا منذ زمن بعيد».

فلما أكلوا وشبعوا قال لهم النبى ﷺ: «خبز ولحم وتمر وبسر ورطب، ودمعت عيناه.. والذى نفسى بيده إن هذا لهو النعيم الذى تسألون عنه. قال الله: ﴿ تَمُرٌ لَّسْتَ لَنْ يَوْمٍ مِّنْهُ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ فهذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة»، فكبر ذلك على أصحابه وقالوا: يارسول الله أى نعيم نسأل عنه،

سيوفنا على عواتقنا والأرض كلها لنا حرب، يصبح أحدنا بغير غداء ويمسى بغير عشاء؟.

فقال لهم النبي ﷺ: «بلى، إذا أصبتم هذا فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله فإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذى هو أشبعنا وأنعم علينا وأفضل، فإن هذا كفاف لها»^(١).

(١) القصة بالراويات العديدة عند مسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن حبان وابن مردويه وفى الجوع لابن أبى الدنيا ومسنده أبى يعلى الموصلى وغيرهم.

القصة العشرون

خبيب رضي الله عنه صحابي على الصليب

كان ما أصاب المسلمين في أحد سببا لأن تشمت فيهم القبائل الوثنية وتتجرأ عليهم فتخرج ما كانت تكتمه نحوهم من حقد دفين.. فتحركت ضدهم أحياء العرب، وتجاسرت كل قبيلة على أن تؤذى المسلمين. ومن هؤلاء كان حى عضل والقارة. فقد قرر أهل هذا الحى أن يصنعوا مكيدة خبيثة للمسلمين، فأرسلوا وفدا إلى النبي ﷺ وقالوا له إنهم قد أسلموا وأن الاسلام قد فشا في حيهيم. وأنهم يحتاجون أن يبعث معهم عددا من الصحابة كي يفقهوهم في الإسلام ويعلموهم القرآن. ولما كان النبي ﷺ يقول: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(١).

أرسل معهم النبي ﷺ عشرة من أصحابه يعلمونهم الدين وعاملهم على ظاهرهم بما يقولون، برغم أنهم كاذبون يضمرون الغدر، ولكن لأن الله سيجعل هؤلاء الصحابة المبعوثين من قبل الرسول ﷺ سببا بالفعل لهداية أقوام آخرين وسوف يكونون مثلا في البطولة والفداء.. وكان من بين هؤلاء العشرة المسلمين ثلاثة أبطال وهم عاصم وزيد وخبيب.

(١) أبو داود والترمذى وابن ماجه والمنذرى وابن حبان والحاكم

وقد مضت رسل رسول الله ﷺ مع هذا الوفد الكاذب وهم يضمرون فى قلوبهم نيات الخير ويحملون مشاعل النور، فبينما هم فى الطريق عند واد يسمى الرجيع، يسرون فى البيداء الواسعة، يقرأون آيات الله ويذكرون عظمته وجلاله.. إذا بهذا الوفد يتنمر لهم فجأة وتلمع أعينهم بنظرات الخيانة ويلوحون بإشارة من أياديهم الآثمة.

فإذا بالجبال تنشق فجأة عن مئات من الأعراب الملتئمين فيخرجون وكأنهم الشياطين المردة شاهرين السلاح ويحيطون برسل النبي العشرة.. وكانوا يريدون أن يأسروهم ويذهبون بهم إلى وثنيى مكة ليقتلوهم.. فلما رأت رسل النبي ﷺ هذه الغارة المعتدية أمسكوا سيوفهم يدافعون عن أنفسهم. فَقَالَ لَهُمُ الْعَدُوُّ: مَا تُرِيدُ فِتَاكُمُ. وَلَكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ أَلَا نَقْتُلُكُمْ. فمن صدقهم على هذا العهد من رسل النبي استسلموا لهم ولم يقاتلوهم. فإذا بالعدو يجردهم من سلاحهم ويوثقهم بالحبال وأوتار قسيهم.. فلما شاهد ذلك ثلاثة من الرسل وهم عاصم ومرثد وخالد بن البكير رفضوا أن يستسلموا وقالوا: لا نقبل عهدا من مشرك.. فهجم العدو على هؤلاء الثلاثة.

وقاتلوهم حتى قتلوهم. وكانوا يريدون التمثيل بجسد عاصم وقطع رأسه كى يبيعوها لامرأة من قريش اسمها سلافة.. لأن هذه المرأة قد نذرت أن تشرب فى قحف رأس عاصم الخمر. وأن تعطى لمن يأتيها برأسه مائة ناقة.. فقال عاصم وهو يحتضر: اللَّهُمَّ إِنِّي حَمَيْتُ دِينَكَ أَوْلَ نَهَارِي. فَأَحْمِ لِي لَحْمِي آخِرَهُ.

فلما اقتربوا منه بسيوفهم يتسابقون لقطع رأسه بعث الله عليهم عددا كبيرا من الدبر والنحل الجبلى فصار كأنه سحابة سوداء لها ظنين عال فاجتمعت فوق جسد عاصم تحميه منهم فلم يقترب إليه أحد منهم إلا لدغته فى وجهه وهجمت عليه.. فقالوا: دعوه إلى الليل؛ فإنه إذا جاء الليل ذهب عنه هذه الدبر وعادت إلى أعشاشها.

فلما جاء الليل أرسل الله على الوادى سيلا شديدا فتحصنوا منه فى رؤوس الجبال واحتمل السيل جسد عاصم فذهب به بعيدا عنهم ولم يعثر عليه أحد إلى الآن.. فكان عُمرُ بنُ الخطابِ يَذْكُرُ عَاصِمًا أَنَّهُ نَذَرَ أَلَّا يَمَسَّ مُشْرِكًا. وَلَا يَمَسُّهُ مُشْرِكٌ، ويقول: إِنَّ اللَّهَ لِيَحْفَظُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ مَنَعَهُ اللَّهُ أَنْ يَمَسُّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَا امْتَنَعَ فِي حَيَاتِهِ.

ولما قتلوا الثلاثة وساروا بباقي رسل النبى ﷺ حتى وصلوا عند مر الظهران ووجدوا أنفسهم فى الطريق إلى مكة قال الصحابى عبد الله بن طارق: هَذَا أَوَّلُ الْعُدْرِ وَاللَّهِ لَا أَصَاحِبُكُمْ إِلَى مَكَّةَ وَإِنْ لِي فِي هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى لَأَسْوَةٌ، فَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ رِبَاطِهِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ يَدَافِعُ بِهِ عَنِ نَفْسِهِ، فَانْحَارُوا عَنْهُ وَهَجَمُوا عَلَيْهِ جَمِيعَهُمْ يِقَاتِلُونَهُ فَأَخَذَ يَدْخُلُ فِيهِمْ وَيَنْفَرُجُونَ عَنْهُ خَوْفًا مِنْهُ.. فَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ بَعِيدٍ حَتَّى سَقَطَ شَهِيدًا، فَقَبْرُهُ هُنَاكَ بِمَرِّ الظُّهْرَانِ.

ولما دخلوا مكة برسل النبى ﷺ أقبل عليهم المشركون من كل صوب يريدون الانتقام من المسلمين وراحت كل قبيلة تشتري منهم مسلما ثم يقتلونه بعد أن يعذبه ويعطوه للصبيان والسفهاء يجرونه فى وديان مكة على مرأى ومسمع من الناس.

واشترت قبيلة من الوثنيين خبيص بن عدى بثمانين مثقال من ذهب، واشترت قبيلة أخرى زيد بن الدثنة بخمسين.. فنظر خبيص إلى أخيه زيد يودعه ثم تعانقا وأوصى كل واحد منهما صاحبه على الصبر والثبات.. وهجم المشركون على زيد فاقتادوه إلى مكان قتله بالتنعيم، وتجمعوا حوله فقالوا له: ارجع عن دينك يا زيد فنطلقك ونعفو عنك.

فقال زيد: لا، والله لا أفارق ديني أبداً..
فقالوا: أيسرك يا زيد أن محمداً يكون في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟.. فأجابهم زيد: ما يسرنى أن محمداً أشيك بشوكة، وأنى في بيتي.

فتغيظوا منه وقتلوه.

وأما خبيص فقد حبسوه في بيت من بيوتهم ووضعوه في حجرة موثق بالقيود والسلاسل حتى يأتي يوم تجتمع فيه القبائل فيشهدون مقتله.. فكان خبيص يقضى وقته يصلى ويقرأ القرآن ويتعهد في الليل بالصلاة. كان عابداً، ناسكاً، زاهداً، يحمل في داخله طبيعة العابدين، وروح المحبين، حتى إن من كان يسمع صلاته وصوت قراءته ودعائه من خارج البيت يرق قلبه له.. وكانت هناك نساء وصبيان يجتمعون ليلاً فيسمعونه فلا يملكون أنفسهم حتى يبكون.

وقد جعل الله خبيصاً يغرس بصلواته في قلوب هؤلاء بذرة الإيمان كما سيغرسها بدمائه في قلوب آخرين.

وكان من بين هؤلاء صبي صغير وهو ابن لصاحبة الدار التي يوجد بها خبيص وكانت تدعى ماوية، صار هذا الصبي يحب خبيصاً ويختلس الدخول إليه في محبسه فيكلمه ويسمع منه، حتى طلب منه خبيص

فى يوم أن يأتية بموسى - أداة للحلاقة - لكى يتطهر ويحلق بها شعره قبل أن يقتله المشركون.. فذهب الصبى إلى أمه وطلب منها ذلك، فأعطته له وبمجرد أن دخل الصبى إلى خبيب، تداركت أمه ما صنعت وخافت أن يقتل خبيب ابنها بهذا الموسى وقالت: ماذا صنعت، أدرك والله الرجل ثاره، بَعَثَ الْعَلَامَ بِهَذِهِ الْحَدِيدَةِ فَيَقْتُلُهُ وَيَقُولُ: رَجُلٌ بِرَجُلٍ. ثم أسرعت ماوية مهرولة فدخلت على خبيب فوجدته فى قيوده يمسك بالموسى والصبى جالسا عنده سليما ينظر إليه وخبيب يضحك إليه. فلما رآها خبيب قال مازحا: لَقَدْ خَشِيتُ أَمَكِ غَدْرِي حِينَ بَعَثْتَ مَعَكَ بِحَدِيدَةٍ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ قَتْلِي.

فقال المرأة له: يَا خُبَيْبُ إِنَّمَا أَمَنْتُكَ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَأَعْطَيْتُكَ بِالْهَيْكِ، وَلَمْ أَعْطِكَ لِتَقْتُلَ ابْنِي.

فَقَالَ خُبَيْبٌ مُطْمَئِنًّا لَهَا: مَا كُنْتُ لِأَقْتُلَهُ، وَمَا نَسْتَجِلُّ فِي دِينِنَا الْعَدْرَ، ثُمَّ أَعْطَاهَا الصَّبِيَّ سَالِمًا.

وصنع الله لخبيب كرامات كثيرة، فكان الله يرسل له الفاكهة من العنب فى غير أوانها فتكون بين يديه.. حتى إن ماوية وابنها قد رأوا ذلك بأعينهم، فراحت المرأة تخبر بذلك أهل مكة وتقول: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْلِ الْبَابِ، وَإِنَّهُ لَفِي الْحَدِيدِ مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ حَبَّةَ عِنَبٍ تُوَكَّلُ، وَإِنْ فِي يَدِهِ لِقِطْفِ عِنَبٍ مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَمَا هُوَ إِلَّا رَزَقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ.

فاجتمعوا يشاهدون هذه الآية وأسلم منهم عدد كثير لذلك وامتلأوا بالإيمان يسرون ذلك فى قلوبهم.. وخشى المشركون من ذبىاع نبأ خبيب فى مكة وانجذاب قلوب الناس إليه فيخرج الأمر من أيديهم.

فخرجوا به إلى التنعيم ليقتلوه وقد اختاروا له إزهاق روحه بالصليب.. فرفعوا له صليبا من جذوع النخل واقتادوه وهو موثق بالحديد ليصلبوه عليه واجتمع حوله الشباب والعبيد والنساء والصبيان.

أسرعت الجموع لتشاهد نهاية هذا العابد الذليل لربه والبطل العظيم الذى سيكتب بنهايته بداية الإيمان فى قلوبهم.. فكان منهم صنف متعاطف معه يكتم دموعه ولوعته فى صدره خوفا من بطش المشركين، وصنف آخر خرجوا يملأهم الحقد والرغبة فى الدماء.

وطلب منهم خبيب أن يصلى ركعتين قبل أن يرفعه على الصليب، فوافقوه على ذلك، لعله خلال صلاته يراجع نفسه ويكفر فيضن بحياته وينقذ نفسه من القتل.. وراح خبيب يصلى ويسجد فى تبتل وتذوب روحه فى لذة هذه العبادة التى يعشقها.. فأراد أن يطيل ويطيل، ولكنه تذكر جموع المشركين الذين حوله ينتظرون بفارغ الصبر أن ينهشوا لحم فريستهم. فالتفت إليهم قائلا: والله لولا أن تحسبوا أن بى جزعا من الموت، لازددت صلاة.

فانطلقوا نحوه فى غيظ وحنق فحملوه وأثبتوه على الصليب ووثقوه فوقه.

ثم قالوا له: هل علمت أن زيدا صاحبك قتل وأنا ملحقوك به؟ وهم يريدون بذلك أن يسحقوا أعصابه ويزلزلوا ثباته الذى حيرهم، فنظر إلى وجوههم فى قوة أذهلتهم عن السماتة ثم رد عليهم قائلا:

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعي
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم توجه خبيب يخاطب ربه وقد تذكر حبيبه النبي ﷺ في هذه اللحظة التي أوشك أن يفارق فيها الدنيا فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَرَى هُنَا إِلَّا وَجْهَ الْعَدُوِّ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا أَحَدٌ يُبَلِّغُ رَسُوكَ السَّلَامَ عَنِّي، فَبَلِّغْهُ أُنْتَ عَنِّي السَّلَامَ. فتغيظ المشركون من ذكره للنبي ﷺ وسألوه نفس السؤال الذي وجهوه لزيد من قبل، فقالوا له: أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا فِي مَكَانِكَ يَا خَبِيبَ وَأَنْتَ جَالِسٌ فِي بَيْتِكَ؟.

فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ مَا أَحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي، مَعِيَ عَافِيَةُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا، وَيَصَابُ رَسُولُ اللَّهِ بِشَوْكَةٍ فِي مَكَانِهِ.

فتعجبوا منه ومضى أبو سفيان يضرب كفا بكف ويقول: لَا، مَا رَأَيْنَا أَصْحَابَ رَجُلٍ قَطُّ أَشَدَّ لَهُ حُبًّا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ ثم راحوا يقولون له: ارْجِعْ يَا خَبِيبُ عَنْ دِينِكَ.. فَقَالَ: لَا أَرْجِعُ أَبَدًا.. فَقَالُوا وَقَدْ يئسوا منه: أَمَا وَاللَّاتِي وَالْعُرَى، لَئِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَقْتُلَنَّكَ..

فَقَالَ خَبِيبٌ: إِنْ قَتَلَنِي فِي اللَّهِ لَقَلِيلٌ.. ثم دعا ربه بصوت مرتفع فقال.

اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَأَقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا..

فارتعدوا جميعهم من دعوته حتى إنهم ألقوا بأنفسهم على الأرض خوفاً من أن ينظروا في وجهه عندها فتصيبهم دعوته.. حتى كان معاوية بن أبي سفيان يقول: كنت مع أبي وقتها فجعل يلقيني إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب.. فكان منهم من يسد أذنيه حتى لا يسمعه، ومنهم من يتستر بالشجر ويهرب خوفاً من دعوته.

وكان من بينهم شاب اسمه سعيد بن عامر لم يتمالك نفسه أن انفجر فى البكاء وخر مغشيا عليه، لأنه كان يريد أن ينصر خبيب ولكنه لا يستطيع.. فلم يكن يقوى سعيد بن عامر على تحمل هذا الموقف الذى لا يغادر خياله بعد ذلك.. حتى بعد ما أسلم بزمن فكانت تصيبه غشية - إغماءة طالما لازمته عمره كله كلما تذكر هذا المشهد وهو يرى صلب خبيب مظلوما ويرى نفسه يقف متفرجا مكتوف الأيدي.

ثم هتف خبيب قائلاً: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا، وامحمداه. السلام عليك يا رسول الله.. السلام عليك يا رسول الله.. السلام عليك يا رسول الله.

فنهض المشركون ودعوا أولادا من أبناء من قتل ببدر فوجدوهم أربعين غلاما، فأعطوا كل غلام منهم رُمحا. ثم قالوا لهم: هذا الذى قتل آباءكم فاقتلوه. فطعنوه جميعا برماحهم طعنا خفيفا، فاضطرب على الخشية.. ثم أقبل رجل يدعى أبا سروعَةَ فطعنه بالحربة حتى أخرجها من ظهره. فمكث خبيب بعض ساعة يُوحِدُ اللهُ وَيَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ثُمَّ سَكَنَتْ أَنْفَاسُهُ وَانْتَقَلَتْ رُوحُهُ.

فتعجبوا منه ومن شدة محبته للنبي ﷺ وذكره له وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى قال الأحنس بن شريق: لَوْ تَرَكَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ عَلَى حَالٍ.. لَكَانَ تَرَكُهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ.. مَا رَأَيْنَا قَطُّ وَالِدًا يَجِدُ يَتَعَشَّقُ بِوَلَدِهِ.. مَا يَجِدُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ.

وكان النبي ﷺ فى هذا الوقت جالسا مع أصحابه فى المدينة فأخذته غمبة كما كان يأخذُه إذا أنزل عليه الوحي. فسمع الصحابة النبي ﷺ

وهو يَقُولُ: «وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، فسأله عن ذلك فَقَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ يُقْرَأُنِي مِنْ حُبَيْبِ السَّلَامِ».. «وعليك السلام يا خبيب قتلته قريش».. «وعليك السلام يا خبيب»^(١).

وانتقلت روح خبيب العابد العاشق إلى خالقها، تصحبها الرحمة وتظلها صلوات النبي وسلامه عليه.

ناديت محبوبى من بعد فنادانى	والسروح تصغى بغير آذان
يحجب الحب جدران ومحتبس	فالروح تطلق من قيد بإيمان
لأن أرواحنا فى الله مؤتلفة	فالله يجمعنا كجند بميدان
رسائلنا فى الحب منه مقروءة	كسارية بجبل أطلقت لفرسان
رسالة كتبت؛ بالدم والدمع	وختمها الروح فى يد رحمن

(١) مغازى الواقدي ومغازى موسى بن عقبة وابن حجر فى شرحه على صحيح البخارى كما فى فتح البارى من رواية موسى بن عقبة والسيرة لابن هشام وصفة الصفوة للجوزى وسير أعلام النبلاء، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة.

الفهرس

- ٣ دَار مَجْمَعُ الأَنْوَارِ
القصة الأولى:
- ٧ الرُّؤْيَا المَنَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ رضي الله عنه
القصة الثانية:
- ١٣ الصَّحَابِيُّ الَّذِي تَغَذَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا عَلَى المَاءِ فَقَطْ
القصة الثالثة:
- ١٩ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَفْدِي بِأَلَا رضي الله عنه مِنَ العَذَابِ
القصة الرابعة:
- عِرْدَانِ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه ابْنِ وَأَبُوهُ يَخْتَلِفَانِ، ثُمَّ يَلْتَقِيَانِ فِي أَحْضَانِ
الهِدَايَةِ
القصة الخامسة:
- ٢٦ الطِّفْلِ رضي الله عنه وَمِعْجَزَةِ قَنْدِيلِ النُّورِ
القصة السادسة:
- ٢٩ هِجْرَةَ أَبِي أَحْمَدِ الضَّرِيرِ رضي الله عنه وَرِحْلَةَ الكِفَاحِ المَقْدِسِ
القصة السابعة:
- ٣٢ أُمِّ شَرِيكِ رضي الله عنه وَمِعْجَزَةِ المَاءِ وَإِنَاءِ السَّمَنِ المَبَارِكِ
القصة الثامنة:
- ٣٥ وَاصْهِيْبَاهِ وَلَا صَهِيْبَ لِي
القصة التاسعة:
- ٣٨ أُمِّ سَلْمَةَ رضي الله عنها مِنَ طَرِيقِ البَلَاءِ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ
القصة العاشرة:

القصة العاشرة:

ماذا فعل أنس رضي الله عنه كي يرى النبي ويخدمه؟ وكيف نالته بركته؟ ٤٥
القصة الحادية عشرة:

عندما أراد ابن سلام رضي الله عنه اختبار النبي صلى الله عليه وسلم ٤٨
القصة الثانية عشرة:

الفتى على رضي الله عنه صقر بنى هاشم ٥٠
القصة الثالثة عشرة:

دعثور رضي الله عنه عندما أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وقصته مع السيف ٥٧
القصة الرابعة عشرة:

جبار بن سلمى رضي الله عنه من قاطع طريق إلى صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ٦١
القصة الخامسة عشرة:

جابر رضي الله عنه والبركة المحمدية في الجمل والتمر والنمارق ٧٥
القصة السادسة عشرة:

جابر رضي الله عنه يطعم جيشا كاملا بمعجزة نبوية ٨١
القصة السابعة عشرة:

حذيفة رضي الله عنه ينام في شملة النبي صلى الله عليه وسلم ويصبح صاحب السر ٨٤
القصة الثامنة عشرة:

ثعلبة رضي الله عنه شهيد التوبة ٨٩
القصة التاسعة عشرة:

ماذا فعل أبو الهيثم رضي الله عنه عندما وجد النبي صلى الله عليه وسلم في بيته ٩٤
القصة العشرون:

خبيب رضي الله عنه صحابي على الصليب ٩٨